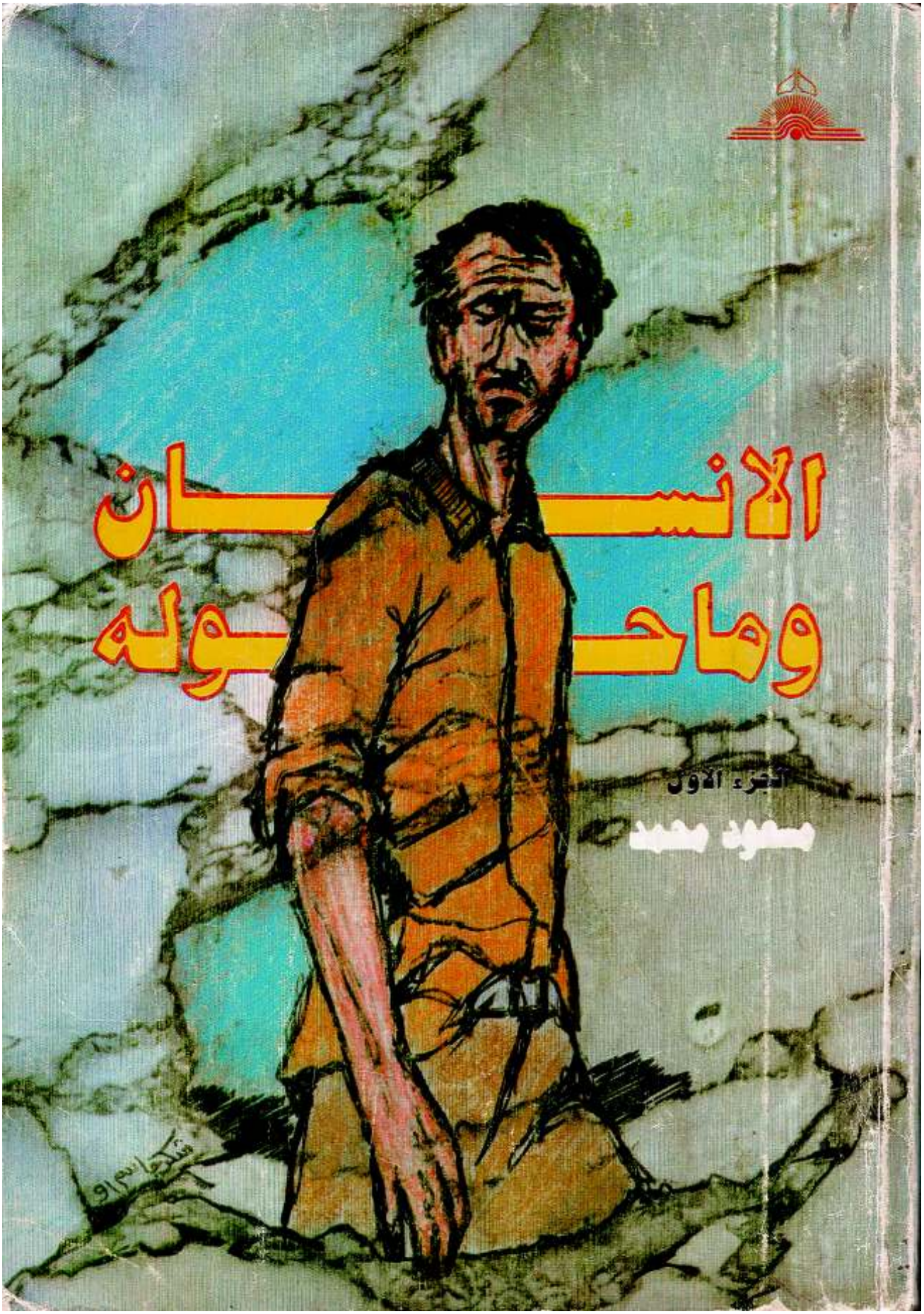
الانسان وماحوله
الجزء الاول
سعود محمد

جمهورية العراق
وزارة الثقافة والاعلام
دار الثقافة والنشر الكردية
تسلسل ٢٦٧

الأنسان وما حوله

مسعود محمد

الجزء الاول

١٩٩١

الانسان وما حوله

في الجزء الاول من كتاب «حاجي قادرى كويى ـ الحاج قادر الكوبى» وفي ثنايا بحثي عن ظروف انتقاله ، طفلا ، من حياة القرية الى حياة المدينة ، عطفت الاذعان الى حقيقة تبدو واضحة بمقارنة ديوان حاجى قادر الى ديوان الشاعر نالى من حيث ان ديوان حاجى قادر يعكس صورة حائلة اللون من رؤى الورد والعشب والريف مما يحمل على ظن قوي بأن حاجى قادر ترك حياة الريف الى المدينة في عمر مبكر لم يتسع لرسوخ صور حياة القرية في واعيته وضميره ، لذلك جاءت اصداء تلك الحياة المنبعثة من شعره متناسبة مع ما نسمعه من صداها في ديوان اي شاعر حضري ، على حين نجد ظاهرة العشب والزهر والريف في شعر نالى غنية متأصلة توحي بأنه قضى كل طفولته وحداثته وصباه بين الزهر والعشب وما اليهما مما تحفل به القرية من صنوف بهيمة الانعام .

فأنت ترى ان هذه المقارنة بين ديواني (حاجى) و (نالى) عزت خطورة كبيرة لتأثير المحيط في دخيلة الشاعر وخياله ، فهي في ظاهرها تحكم بانقياد الشاعر ، او الانسان عموما ، لمقتضى متطلبات البيئة المادية وتصدق مقولة مؤداها ان الشاعر والاديب والفنان هم (مرآة الواقع) . ومن هنا لزم لزوم الضرورة ان ارفع يد (الڤيتو) تلقاء مثل هذا التصور لانه تصور يمنح المادة الباردة الميتة مقدارا خطيرا من فاعلية الانسان ، ذلك المخلوق المالك للارادة والوعي ومزايا لا تحصى اختص بها الانسان وحده .

وحين اقول : ارفع يد الڤيتو فكأني اعترض به على نفسي لان التصور

الذي اعارضه صدر مني كما صدرت المقارنة مني أيضا ، ولكن الواقع هو ان الفيتو لا يجابهني ، وستنكشف لك هـذه الحقيقة في الصفحات التالية بلا تأخير ، وانما الذي يتحداه الفيتو هو جبهة عريضة من اصحاب التفكير والتحليل المادي الذين هم وما يبشرون به من فكر سبب انصراف الذهن الى الشك في فاعلية دور الانسان من اقامة مثل المقارنة الآنفة بين ديواني حاجي ونالى فقد حصل منذ زمان مديد ان تراكـم الممارسات الفكرية التي دأبت في اخضاع الانسان لمحيطه قد آل بالاذهانَ الى التهيؤ لاعتبار اي تحليل مادي للاشياء مستدعيا لاقرار عجز الانسان في مقابلة المادة . ولئن كنت لا أضيق فكـرا بأهمية المادة ومقام المحيط الواقع والحدث .. الخ في حياة الانسان وتقدمه الاجتماعي وحركة تأريخه وفي كل الحيثيات المتصلة به فاني أجهد في معارضة انقلاب الايمان المبالـغ فيه بفاعلية المادة الى مصـادرة فاعليـة الانسـان وخالقيته لحساب المادة فاننا نعلم من أمر الانسان انه بالاضافة الى كون جسمه متخلقا من المادة [فهو بهذا يساوي المادة في أقل تقدير] فهو يملك حياة وعقلا وارادة لا توجد في المادة الميتة والمحيط المنجمد وهي حقيقة أولية واساسية في قراءة سفر الاجتماع يكون اهمالها من قبيل اهمال تعلم الابجدية في محاولة القراءة . ومهما أكن متحفظا في اعتبار منحاي الفكـري هذا وسيلة لجعل تابعية المادة ومتبوعية الانسان دستورا للاجتماع والتأريخ غير مستند الى التدقيق والموازنة فلن اسامح نفسي ولا أرضى مـن احد ان يعتبر التخطيط للاجتماع والتأريخ عن سبيل التفكير المادي مؤديا الى قلب الحقائق رأسا على عقب ، ومن الواضح ان أكبر قلبة في هذا الميدان هي تركيع الانسان الحي الحساس المريد امام المادة المتصلبة المتخشبة . والذي استغرب له في هذا المجال هو ان المفكرين الذين يهبطون بمنزلة الانسان لحساب المادة يعتبرون أنفسهم من محبي البشر وقادته وثواره وهم يتوهمون ان سلخ البشر من جلدة ابداعه وفاعليته وتقديمها الى المادة الميتة هي زيادة تمتين لاسـاس الفلسفة المادية [الجدلية] التي هي وحدها قاعدة المصلحة والرفاه والتقدم للبشر في نظرهم .

حقا ان هذا النوع من التفكير هو من قبيل الابتهاج بضعف قوة البصر عند الناس لزيادة خطورة العوينات . انا اعلم ان المفكرين الذين يجدون قوة الفلسفة المادية في غلبة المادة على البشر لا يستطيعون ولا يجرأون وربما لا يرضى وهمهم ان يضعوا العوينات وعيني البشر في كفتي ميزا نواحد للتقويم والتقدير لما ينطوي عليه ذلك من بؤس وفجاجة تعجز اشد تأويلاتهم التواء وتغليطا ان تضيفها الى دعواهم في حب البشر والريادة والثورية ولكن مهما امتنعوا عن التصريح فان نصوص نظريتهم وتعاليمها ونتائجها الفكرية تقودنا بالضرورة الى تسليط العوينات على العيون ويكون عدم اعترافهم بهذه النتيجة نكوصا توجسيا بل انهزاميا من مآل المقدمات التي يعتبرونها رائقة ومتدفقة لنظريتهم : ان عقيدة وفلسفة تشرع منذ بداية تخلقها واتساجها في توجيه وعودها الريادية نحو وجهة تبشرنا بخيرها وصدقها لا يجوز الاقرار بحقها في مطالبتها لنا ان نغض الطرف عن بطلان وعودها او تتسامح في تنصلها عن خواتيم المقدمات الفكرية التي اقامتها ابتداء لكشف حقائق الاشياء وخفاياها ، فنحن في ميدان الفكر والفلسفة لسنا حجارة (الدامة) التي يحركها وينقلها جهابذة اللعبة حسب قواعدها والحجارة لا تحس بنفسها وتنقلها : اننا بشر تتذكر ما قيل لنا آنفا ، فاذا دعينا بعد ذلك الى شل احاسيسنا عن عدم تحقق النتائج المنتظرة فان علينا ان نشدد قبضتنا على وعينا وفهمنا وذاكرتنا حتى لا يختلسوها فاذا حدث شيء بخلاف الوعود المبذولة ساءلناهم عنه فلا تتهاون بتركهم يمارسون علينا خداع النظر وتغليط الاحاسيس حتى لا يتمكنوا بالتلبيس والمواربة خلط الاصفر والاحمر والاسود والابيض توصلا منهم الى اختلاس نقطة انتقادنا في مضغ الكلام . لقد اوصى برنارد شو طلاب جامعات بريطانيا في واحدة من وصاياه قبل اكثر من نصف قرن ان ينتبهوا الى انفسهم ضد محاولة أساتذتهم مصادرة عقولهم ضمانا لتصديق كل ما يقولون . فاذا أمكننا ان نقدر أو نجرأ على التمسك بوعينا فانا نكون قد نجونا من غالب الحيل الفكرية المنصوبة لنا فتدور الدائرة على اناس صاروا رادة وقادة يشار اليهم بالبنان عن سبيل

تعزى عقول الناس فيصبحون بعد كشف حيلهم كالمشعوذ الذي يدعي العلم بالغيب حين يظهر بطلان نبوآته فانه بمثل ما نرفض التأويل المتكلف من شيخ طريقة خابت نذره بحلول القيامة في ايام معدودات كذلك نرفض من الفيلسوف الذي رجح مقام المادة على مقام البشر ان يتملص من النتائج المحجوجة لفلسفته فيثابر على مجابهته ومجابهة فلسفته بها لعل الناس ينجون من ضجيجه المضلل .

ما من شك في ان فاعلية ترصدنا لما يقوله اصحاب الفلسفات لا تنحصر في هذا الميدان المحدود من تقابل (المقدمة والنتيجة) في نظرياتهم بل ان فاعليتها في كل ميادين الاجتماع والتطور والنضال والفن والادب والعلوم تتجاوز حد الضرورة لتصبح من مستلزمات البرهنة على انسانيتنا واحترام ذواتنا والازدهاء بوجودنا من حيث ان هذه البرهنة مرتبطة بالمواقف التي نكون فيها احرارا وشجعانا محتفظين بكامل الاختيار فيما نرضى ونرفض : اني اذ اكابد شعور الضيق والقلق فيما اراه من انقلاب ملايين الناس الى ما يشبه لعب الاطفال الفاقدة للارادة في ايدي مبتدعي موديلات الملبس فيلفون قاماتهم في خرق القماش بفرضها على اذواقهم وجيوبهم فان ضيقي يتضاعف كثيرا حين ارى جمهرة المثقفين والثوريين والمناضلين والادباء والفنانين ينقلبون الى طين صناعي طيع في يد أصحاب الفلسفات ، وعلى حسب ما تتبدل أنغام فلسفاتهم يتبدل اولئك الجمهور الى أقصر واطول واعرض وأرفع واشد احمرارا وبياضا ومن كل الصفات حتى لا يكادون يعرفون من طور الى طور . انا لا اطلب من أحد ان يمتنع من الايمان بأي شخص وبأي شيء : انا اوصيه باحترام ايمانه عن سبيل تصديه وتجريمه لاي التواء يكتشفه في الفلسفة التي اتخذها محور قناعته .. اقول له لا تصبح درويشا لفلسفات اواخر القرن العشرين . وكان احترامي لقدسية الرأي الحر هو الذي قادني الى مراجعة ما أسلفت من التقويم والمقارنة [بين ديواني حاجى ونالى] كي انفض منهما احتمال التوهين في شأن خالقية الانسان وارادته .

ان ملاحظة التخوف من (توهين شأن الانسان) جراء المقارنة المذكورة بين الديوانين أقلعت بقلمي حالا من متابعة البحث في موضوع (حاجى) و صرفتني الى توضيح حقيقة المسألة في (الفاعلية والانفعال) بين الانسان والمادة بحسب ما يظهر لرؤيتي • فلما انتهيت من توضيحها وجدته قد استغرق نحوا من ثمانين صفحة فاضطررت الى استلالها من الموضوع الاصلي ولكني في الجزء الاول نفسه من الكتاب المذكور وتحت عنوان « بحث جانبي مهم » شرحت الكيفية في الصفحة ١٥٦ وما بعدها الى بضع صفحات مضيفا الى الشرح نموذجا من ذلك البحث مع وعد مني في نهاية ذلك بنشر الكتابة المذكورة قريبا « ما لم يجبهني فيها عائق اقوى من استطاعتي » •

والكتابة المعنونة بـ « بحث جانبي مهم » ضمن موضوع الجزء الاول لكتاب (حاجى قادرى كويى) تعود بدايتها الى اوائل سنة ١٩٧٢ ولكن الجزء الاول من الكتاب نفسه وبضمنه البحث الجانبي لم يسنح له الطبع فجاء الفراغ منه وحصل نشره في يوم رفع الستار عن تمثال حاجى في كويسنجق وصادف ١٩٧٣/١١/٢٩ • والذي كان تحت عنوان البحث الجانبي تراخى الى هذا اليوم [سنة ١٩٧٧] وهو اذ ينشر الان فهو يقطع المجال امام الجزء الرابع من كتاب (حاجى قادرى كويى) •

ولابد من القول هنا بان الكتابة المذكورة طالت الى اكثر من ضعفيها بحسب اقتضاء توضيح مواضيعها وحوت احداثا استجدت بعد ١٩٧٢ وتوسعت الى مقارنات و تصورات اقتضاها التعمق وزيادة الشمول وهي كلها من رشح فكري ولكن الصدف لم تنفرج عن امكان نشرها في الماضي • على أن مجموع ما هو منشور في هذا الكتاب من آرائي وتصوراتي قليل من كثير في ميدان شد الحبل بين (المادة والانسان ــ الطبيعة والعقل) حوتها صفحاته في تفسير الاجتماع •

أرى من باب زيادة التوضيح لمنبع الموضوع الذي وقع تحت عنوان

(بحث جانبي مهم) ان أنقل صفحات من الجزء الاول لكتاب (حاجى قادرى كويى) كانت ذات علاقة بفتح الباب على ذلك البحث الجانبي وبعدها اشرع في كتابة البحث الجانبي [الذي صار كتابا بعنوان « الانسان وما حوله »] .

بعد التحقيق في تحديد مكان وميلاد حاجى قادر انتقل الى جدل فكري خاص بي يلتبس بمادة التحقيق . هذا الجدل يبدأ في اوائل الصفحة ١٤٩ من كتاب (حاجى قادرى كويى) على النحو الذي يراه القارىء فيما يلي مباشرة :

« هذه الامور التي عرضتها على القارىء هي جملة الاقوال والاراء المتباينة في تأريخ ومحل ولادة حاجى قادر وسنة انتقاله من القرية الى كويسنجق . بقي كلام خاص بي ، في شكل ملاحظة ، بصدد تحديد سنة انتقاله وقد اشرت اليه آنفا وسميته « دليلا ذهنيا » . والكلام المشار اليه يستند من حيث الاساس الى التواتر ولكن هذا الدليل الذهني يقوم مقام العكازة في تثبيت قامته بلا اهتزاز : ان شبحا ناصلا حائل اللون شبيها بعبث الاحلام او هذيان المحموم الذي هو موجود ومعدوم .. تراه العين ولا تراه ، يتخايل للبصر الذي يلمح الخيال الموهوم وتحسه رهافة الجرح الملتهب ، واليك البيان :

« كأني بـ (نالى) قضى كل طفولته وصدرا من عمره بعد ذلك يكفي ليتخلق باخلاق القرية ، قضاها في شهر زور و « خاك وخول ــ قريته » وفضاء الريف وتأصل خلالها في اعراف الفلاحة فصارت لديه مشاغل الحرث الاول والثاني وفنون البذار والحصاد و نصب البيدر ورفعه وسائر اعباء الزراعة « طبعا مكتسبا » وآلت اسماء الاعشاب والنباتات وانواع الورود والزهور الى قاموس بدائي لبغام الطفولة وانطبعت حياة الريف واحوالها ومظاهرها في صفحة ذهنه وحسه كالنقش المحفور . فالمرجح ان يكون ذلك سببا في ان مواضع كثيرة من ديوانه تلمع فيها الزراعة والحبوب والحرث والتقليب

والبهيمة والزهر والعشب كما يبرق اللؤلؤ والجوهر المنعكس من عقد نضده خبير ماهر . ان حوار نالى مع فضاء الريف والزهر والنبات والبهيمة أشكل بشخص متمرس في القرية وليس بشاعر خيالي . فالتفت معي الى دور حبة « الشلب » في البيتين الاتيين [يأبي البيتان ولم أر ضرورة لترجمتهما] ثم تأتي الصفحات ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، بنماذج من شعر نالى انشغلت كلها ، عن قرب ، بحياة القرية ووصف العشب والزهر والبهيمة ، بعدها يستمر البحث من السطر الاخير في الصفحة ١٥٣ على النحو الاتي :

« في هذه الابيات وفي مواضع اخرى كثيرة ليس « نالى » ذلك الشاعر الذي يذكر الزهر والشجر عن طريق اطلاعه على اسمائها في القواميس والكتب او سماعه اياها من افواه الناس .. كلا بل انه رجل ريفي شد منها الاضمامات مئات المرات ونام عليهن وتقلب بهن من جنب الى جنب . ليس من السهل ان يمر في ذهن الشاعر تشبيه اللسان بال « سوسن الندى الريان » او يمثل احدى عيني الحولاء [في مقام المدح] بالبنفسج قبل تفتحه ويمثل الاخرى بالنيلوفر [المنفتح] او ان ينقل من نوار اكتنفه الندى منثورا ومنظوما صورة للثغر واللسان واللثة والاسنان . فأقول انه فضلا عن قدرته الشعرية واحساسه المرهف وفكره الدقيق فقد ساعدته « المعاشرة » على بلوغه مراتب الاعجاز في وصف الزهر والعشب والشجر وهي السبب أيضا في كثرة ارتماء هذه الرؤى الى داخل قصائده .

« هذه الظاهرة النباتية بوجهيها « الكمي والكيفي » لا تبين في ديوان حاجى قادر . صحيح ان الزهر والعشب والفاكهة والريف لها وجود في ديوان عامة الشعراء ولكن شتان ما بين وجود بالصدفة أو بالتفحص والتكلف وبين وجود بالانبعاث الذاتي حتى يبدو كجزء من طبيعة الشاعر وضميره . فبقدر ما يكون الشاعر قد صاحبهن عن قرب يأتي ذكره لهن وتوظيفهن للمعنى والترسيم أحفل بالمهارة . وواضح انه كلما كانت هذه الصحبة في بدايات عمر

الشاعر جاء تخلقه بها أقوى وتشرب مزاجه لها أعمق . من هذا اذهب الى ان نالى قضى طفولته وحداثته كلها في قرية (خاك وخول) وفي الريف بين العشب والزهر والبهيمة . ومن طريق (مفهوم المخالفة) قياسا يكون خفوت وقلة الظاهرة التباتية في ديوان حاجى قادر راجعا الى انه لم يعش طور طفولته المبكرة وبدايات حياته في القرية . واستنتج من هذا انه بافتراض ان ولادته لم تكن في كويسنجق فالراجح ان يكون انتقاله اليها جرى في وقت مبكر من طفولته . فالمستخلص من بداهة مقارنة ديوانه بديوان نالى هو انه لم يتسن له في صدر طفولته قربى مع الزرع والزهر والشجر وفضاء الريف فجاء استئناسه بهن أشكل بشاعر حضري . ولكن حاجى نفسه اذ تقيض له ان يصرف بعضا من سني دراسته بين العشائر والرحل تحت الخيمة قريبا من الغنم والنعم و وجد نفسه على مدى عدد من مواسم الربيع في مراتع لاجان وبالك وحول مهاباد وبما عنده من قوة التصوير والتعبير ان يرسم في ربيعيته المشهورة صورة تامة التطابق مع حياة الخيمة ومشغلة ايواء البهيمة وسرح صغارها في رضعات الظهر والمساء وما يماثل ذلك من وعثاء الارتحال في لوحة زيتية باهرة الزينة فيحيط في لمحة العين بالربيع وظعنه وكلب الحي وضامر الخيل والسائمة ومطر السحاب وبروق السماء وطيور الافلاك وتفاصيل هذا الشأن مضمومة مجموعة . فهل كان في امكانه ان يبلغ في تصوير تلك المعيشة وتشابكاتها ومرافقها حد الاجادة والابداع لولا انه عاينها وعايشها ؟ .

« مرة اخرى اقول ، أنعم نظرك في وصف الصحراء والرمل وصنوف الشوك من أثلي وعرفج وخطمي وغيره على طريق البيت الحرام في جملة من قصائد « المناجاة » للشاعر نالى وكيف استدرها من ينبوع قلبه : فلا نالى كان قادرا على خلق تلك الاوصاف المعجزة عن سبيل غير سبيل العيان ولا حاجي او غير حاجي كان يمكنه ان يضمن ديوانه وصفا مماثلا لشيء لم تقع عليه عيناه [فهو لم يحج] . هذه القوة التصويرية التي ابدع بها نالى قصائده

المذكورة لا تطاوع غير آحاد من الافذاذ حتى ولو حجوا البيت فكيف تنقاد لشاعر ما طاف بالبيت ولا قطع المهامه !

« هذه الملاحظات تشجعني على تصديق ما تواتر من رواية تقول ان حاجي انتقل الى كويسنجق في طفولته حيث انفتحت عينه على الدنيا وقطع مرحلة اوائل الدراسة حتى مرتبة التلميذ المتمكن [مرحلة ما بعد الكتاب] فما سمعنا بان حاجى ترك كويسنجق في طلب العلم الا ما كان من ارتحاله الى منطقة بالك [باطراف راوندوز] وكردستان ايران » .

بعد هذا المقدار المنقول من كتاب (حاجى قادرى كويى) نصل الى بداية البحث الجانبي المشار اليه في نهاية الصفحة ١٥٦ من الجزء الاول من الكتاب المذكور ثم اخذ منه نموذج من عشرة اسطر فعرض في الصفحة ١٥٨ منه ، ولكني اكرر هنا ان ما يصل الى الطبع من ذلك البحث الجانبي اوسع مما كتبته في حينه وأن احداثا ووقائع دخلت فيه لم تكن قد نجمت عند انتهائي منه سنة ١٩٧٢ .

وأحببت ان تظل الكتابة هذه محتفظة بعنوانها الاصلي كالمظلة الواقية اي ان استهلها تحت سمة « لا باسيكى گرنگ ــ بحث جانبي مهم » وقد زادني حبا فيهما ان تعاقب السنين اثبت بالوقائع والتجاريب صدق تصوراتي سواء ما كان منها ضمن ذلك البحث أو في الاجزاء الثلاثة كلها من كتاب (حاجى قادرى كويى) ومن باب امتحان اقوالي هذه ارجع الى الصفحات (٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ..) في الجزء الاول من كتاب (حاجى قادر ..) ولك مطلق الحرية في ان تخضع للامتحان أية ورقة أو مقولة اخرى وردت في تلك الكتابات .. بأحساس الارتياح الى ما كتبت من مدة السنين ادعوك لقراءة واعادة امتحان :

« بحث جانبي مهـم »

ها هنا أجد من الضروري التوقف عن سرد قصـة حاجـى قادر تلقاء استقصاء موضوع فرعي يستلزمه تجنيب القاريء زللا فكريا وفلسفيا جراء ما صار من مقارنة سريعة بين ديواني حاجـي ونالى مـن جهة بروز الظاهرة النباتية بشكل متفاوت في قصائدهما . ان هذا التوقف مني بنية انقشـاع الغبار والضباب والعتمة عن كتابتي واجب ينبعث بذاته مـن معاناة الكتابة نفسها فالمطلب الاول من أية كتابة مخلصة هو مصلحة الانسان في يومه الراهن وغده الاتي فقد نجا الراحلون من قبضة الكسب والخسارة والسراء والضراء والزيادة والنقصان ولم يبق لهم من الارتباط بهذه الحيثيات الا ما قد نكسبه نحن ويكسبه الذين يأتون بعدنا من عظة ومنفعة في تفقد حياتهم وجهادهم وما اعتور زمانهم من صلاح وفساد . وليست العظة والعبرة امرا خاضعا للميزان والميكال المادي المحسوس وانما هي أمـر اعتباري يكون صلاحه في تقدير القناعة النظيفة الصادقة هو نفسه الحافز الاول لصاحبها على ما يفعل ويقول . فاذا آنست في رأي قدمته احتمال حصول تصور خاطيء منه عند قارئه لزم لزوم الوجوب أن ألقى حوله من الضوء الكاشف ما يكفي لانارة مواطـيء خطاه درء لاية عثرة . ومن هذا المنطلق افتح بوجه القاريء هذه الصفحات كي أثبت فيها ما أراه صحيحا بقناعة كاملة ، واعلم سلفا اني بعملي هذا استفـز كثيرا من الفكر المتقولب المتجمد ضد نفسي ولكن لا أسمح للتردد ان يخالط نيتي فقد جل البحث في حاجى قادر ، وهو التجسيد لمعنى الخير ، أن يؤول الى سهو القاريء بسبب قصر النفس وشوائب النقص والخلل في كتابتي ، اما

ان يكون الحوت من امتعاض فلان وغيره ذريعة سكوتي عن الحق فذلك أمر كان مرفوضا منذ البداية : فلو كنت ذلك المتخوف المتجفل الذي ينهزم من تقريع خصومه ذوي الادمغة الناشفة فكيف جاز لي ابتداء ان امد الى القلم يدا ! من الذي حملني على الكلام ؟ والحق هو اني مغرم الى حد الافتتان بكشف الخطأ الشائع فيكاد يكون من المتعذر ان ينتصب جبر الخواطر والتلجلج ورعاية الاحاسيس مستدعيا مني كتابة شيء غير موثوق من صدقه .. ان عامة الكتاب يقولون مثل هذا الكلام ، وها أنا قد قلته بدوري ، فليكن القارىء محكما في تشخيص من يكون كلامه الملفوظ مطابقا لموقفه الشاخص ..!!

انا لست كالكاتب (الملتزم) المنحاز الى جهة سياسية او فلسفية محددة سبق منه الانصياع الى قناعة الجهة المقتداة فيثابر على موالاة رأى ناس ارفع منه درجة في الذي يفعل ويقول ويكتب بأكثر مما يقيم الاعتبار للواقع والحدث والصدق وخلافه : ان قناعتي كقناعة اي انسان مالك لقلبه ودماغه ويده ولسانه ، تنبع من أعماق القلب والضمير وفي اعقاب البحث والمقارنة والتقدير الطليقة من كل قيد ، وهذه الطلاقة نفسها هي علة القدرة في نبذ أية عقيدة يظهر بطلانها لانه نبذ لا ينتظر الموافقة عليه من جهات عليا . الذين يسمون أنفسهم (ملتزمين) لا يستطيعون الاقرار بصحة الاشياء قبل صدور الفتوى فيها من ذي سلطان اعلى درجة . وانه لمن الواضح أيضا ان شخصا منزويا مثلي لا يمكن ان يكون على هذه الشاكلة لان كلفة اتكلفها وجهدا أبذله لا ينتظران فتوى ولا يلزمانني سلفا بتخطئة او تصويب الاشياء ولا يقطعان علي طريق البحث الحر وليكن من شأنه قلب قناعات العالم كله فما من ميزان يميل في يدي نتيجة ظهور حقائق مغيبة ولم التزم (مقاولة) صدق الاشياء التي تحوز قناعتي حتى اذا ظهر بطلان واحد من تلك الاشياء نقص شيء من مقدار المكافأة في المقاولة على حين يخسر (الملتزم) الايديولوجي مقامه ويمسح اسمه من السجلات بكلمة واحدة تصدر منه خلافا للفلسفة الملتزمة به انا ملتزم مع

نفسي وليس مع شيء خارج وجودي ، وانا واحد لا تعدد فيه فلا يمكن لاحدهُ تنقيص مكافأة المقاولة على الثاني ، فكما أشرب الماء في يسر عند العطش كذلك اترك عقيدتي في سهولة اذا ثبت بطلانها بالدليل مهما اكن في ماضي عمري بالغت في احترامها . ان اولى توصياتي للمثقف الناشيء الكردي الا ينصب نفسه حارسا للفكر المتقولب .. لا يغمض عينه المتقدة .. ان يكون على الدوام متأهبا لـ (الرفض) شريطة الا يصبح ديدبانا للرفض .. فالوثنية هي الوثنية سواء جاءت من اليسار او الوسط أو اليمين ، والفكرة لا تبرهن صلاحها وفسادها باليسارية واليمينية ، فالفكرة الفاسدة لا تنقلب صالحة اذا اعتنقها اليسار والفكرة الصالحة لا تفسد باتخاذ اليسار لها تهمة يدين بها اليمين .. لا يجوز انقلاب الفلسفة والايديولوجيا الى قوالب للدروشة والتصوف وعلى مقدار حظ فلسفة ما من المادية تزداد حاجتها الى المرونة والسعة وطول البال لانها تنهض اساسا على المادة الصلبة وتتصدى لتفسير كل الاشياء من مادة ومعنى ، فاقول من باب التوضيح ان حنان الام لصغارها لا ينقاد للتفسير المادي الضيق كانقياد التفاعل المادي لها على حين يستطيع الشخص المثالي المؤمن بالغيب في كمال السهولة ان يرد حنان دجاج لكتاكيتها الى ارادة الخالق بانسجام تام مع حكمته اللا محدودة التي تنسجم بالتمام مع التفاعلات الكيمائية أيضا . ومن المؤسف ان ينكر المفكر المادي في غالب الاحيان الاشياء المعنوية التي يصعب تلاؤمها مع ظاهر المفاهيم لفلسفته المادية ويكون الخاسر في ذلك هو ذلك الناشيء الذي يتتلمذ عليه وتجحظ عيناه كالصوفي والدرويش تلقاء الكلمات اللؤلؤية المنثالة من منطق قدوته في المادية . ان الفلسفة المادية اذ تأتي في انشغالها بحفظ ماء الوجه فتضيق من مساحة منطلقاتها واولياتها تكون قد تحجمت الى (محدود) لا يفي في أي منطق متسامح مع النفس بتفسير هذا الكون اللا محدود . والفلسفة الضيقة لا تملك غير خيارين : فأما ان تعلن قصورها عن تفسير الكون واما ان تضيق الكون الى حجم قالبها الضيق ولقد انقضى زمان كانت فيه محاكم التفتيش

في القرون الوسطى ومعسكرات العمل المسخر في سيبريا تجد من يحترمها . وأنا اذ اقول ان على المدرسة المادية ان تتمطى حتى تتسع لتفسير الاشياء اللامادية من مثل حنان الدجاج لكتاكيتها فتقارب فيه قدرة الشخص المؤمن بالغيب على تفسيره بقدرة الخالق دون ان يظهر تناقض في عقيدته فقد قلت واقول ذلك بمبعدة كلية من أن أطلب الى المفكر المادي ترك عقيدته الى عقيدة الايمان بالغيب ، ولو فعل ذلك من ذات نفسه لما اعتور الخور والضعف جانب المادية في عقيدته لان عباد الله أيضا يؤمنون بالدساتير المادية ويقودون الطائرات ويعالجون بالحقن مرضاهم ويحملون حنطتهم الى الرحى .. أنا ما طلبت بقولي ذلك حمل الملحد على الايمان بالخالق وانما كان غرضي ان اقول [وسأضيء رأيي لاحقا ما امكن] ان تمسك الانسان بالتفسير المادي الصلب الجاف الى الحد الذي يفزع فيه من الاقرار بوجود فارق بين تفسير (رحمة الدجاج) وبين تفسير الماء بالاوكسجين والهايدروجين ، ان ذلك يقود الشخص الى القول بان عزل مقداركوب من الماء من محتوى حوض ماء هو عملية مادية شبيهة بقطع رأس دجاجة عن جسدها وان هذا ايضا شبيه بقطع اطراف كائن بشري فكلها عمليات مادية لا تفاوت فيها . مثل هذه الخاتمة العجيبة تنبعث مباشرة من فرض تفسير مادي واحد على (الماء ــ الدجاج ــ الانسان) (الميت ــ الحي ــ العاقل) . فاذا اراد صاحب التفسير المادي ان يتملص من تبعة هذه الخاتمة بان يدعي انه لم يكن يريد في تفسير (حنان الدجاج وتركيب الماء) تفسيرا ماديا ان يقول فيما بعد بتماثل عزل كوب الماء وقطع رأس الدجاجة ، فلن نقبل منه هذا النكوص لان مسامحته في هذا تؤول الى تمكينه من خديعتنا . يجب ان نطالبه بالتفريق بين الميت والحي والعاقل في أول تصديه لبناء النظرية المادية كي يتسنى لنا تصديقه في ادعائه ان نظريته ايضا تفرق عزل الماء عن ذبح الدجاجة وقطع اطراف الانسان . يجب ان تحوي نظريته منذ البداية مقدارا من اسس التفكير والتقدير والتفسير ينهض بالتعامل مع ملايين الاشياء المتباينة المتخالفة وليس انه كلما بانت في فلسفته ثغرة تفلت

الاشياء بلا تفسير عجن كرة طين حديثة الجبل من (الفكر المادي) يسد بها الثغرة ثم يروح يتفاخر بسلامة نظريته وكمالها . اننا اذا سلمنا بمثل هـذا الترقيع من أية عقيدة ، ولتكن عبادة الجن ، تظل امامها حيارى فاقدي الحيلة لانها تستطيع ان تنهض من كبواتها بجهد كاف للتأويل في كل كبوة . وسواء كانت الفلسفة مادية او من صنف اخر فان نقصها وكمالها يظهر من مقدماتها ومن قواعدها الاساسية وليس من ممارستها لفن الترقيع اللاحق . فاذا لم نتخذ من شرط (الكمال والصحة منذ البداية) معيارا لصدق المعتقدات لم نستطع ان نتهم اية عقيدة بالنقص او بالخطأ . واقول من باب المثال المرتجل انه اذا قال قائل : منذا يريد ان اعطيه الف دينار ؟ فالمفروض أن يكون مالكا لالف دينار أو قادرا على تحصيله [بسهولة] في أقل تقدير والا كان في امكانه ان يبذل الوعد فاذا طولب بتنفيذه قال امهلوني حتى اوفره .

اقول في تجرد تام من ان يكون قصدي تخطئة اية واحدة من الفلسفات المختلفة في هذه الدنيا ان الفلسفة الضيقة والعالم العريض طرفان متناقضان لمعادلة الفكر ولا مكان لاجتماعهما في جمجمة اي انسان الا باستعمال السوط وقطع اللسان والاعتقال او بالرشوة وتطييب الخاطر ... انت تعلم مثلي ان (المطلق) و (الازل والابد) وخفايا الطبيعة الميتة والمادة الحية والمادة الواعية وظاهرة (الارادة) وسائر صفات النبات والحيوان والانسان .. ومسائل النسبية والفلك واصل المادة والحاسة السادسة والسابعة وما من قبيل ذلك في اعداد لا نهاية لها ولا حصر لاتساعها امور يعيى فيها الخيال اللا محدود وتهاويم المحموم والاحلام المنفلتة الا اذا كان خوف التبلد والدوار والهلوسة داعيا الى اصطناع حدود ملفقة لتحجيم وتقصير مسافاتها ذلـك ان الوجـود وعلائم استفاهمه تتجاوز امكانات التحديد ومن الواضح ان كيل اللا محدود بمعيار محدود لعبة في منتهى السذاجة : اذا اردت ان تعرف كم دلو ماء يحويه البحر فعليك ان تتخذ للقياس دلوا يناسب البحر أو ان تنقص من سعة البحر حتى

تناسب قياس الدلو أو أن تترك قياسه .. وعلى قدر علمي لم اجد أحدا من مدعي الفلسفة ترك كيل ماء البحر حتى ولو كان دلوه هو (كشتبان) الخياطة فان جميع اصحاب الدلو الفكري الضيق تظاهروا بان دلاءهم تكفي لكيل بحور اضافية ، ومنهم ناس بادروا الى اعلان انتهائهم من الكيل بعد غرفات قليلة . فاذا كان وراء هؤلاء قوة دنيوية تسندهم أو تضمنت ايديولوجيتهم تبشيرا بالمشتهيات تابعهم خلق كثير الى الجنات الدنيوية الموعودة فاذا خابت البشارات وامتنعت الجنات كانت النظرة الشزراء المتوعدة كفيلة بالتهدئة .

هذه المقدمات التي تبدو كالحوار الداخلي للكاتب او المتكلم (وانا هنا الكاتب والمتكلم) من شأنها ان تمد خيوطا اخرى كثيرة من حولها وكلها تدور ضمن مفهوم طلاقة الفكر وافلاس تقولب الفلسفة وتجمدها ذلك ان طلاقة الفكر لا يحدها حد كما ان تقوقع الفلسفات ايضا من الظواهر الملحوظة والشائعة . والواقع هو أن قيام الجدل حول المواضيع الفكرية والفلسفية بشتى انواعها أمر لا يحتمل نهاية ولا يستخسر فيها الجهد والادامة ، وفيما يخص الناشئة الكردية المثقفة تكون اعادة ذكر الافكار المطروقة ايضا ، لاسيما ما كان منها ينتقد (طوبائية) الفلسفة المادية ، على جانب عظيم من الفائدة فانه من المؤسف ان يكون المثقف الكردي قد حرم من ثلاثين سنة مضت كل فكر كان خارج المادية : ان القارىء الكردي لا يرى من مضامين فلسفة مختلفة عن المادية الا مقدارها الذي يتناوله المفكر المادي بالتفنيد والتكذيب والنقض توصلا الى تقوية اساس فلسفته المادية شأنه في ذلك شأن المتدين المؤمن الذي يتناول معتقدات الزنادقة والكفار وفاقدي الايمان من اجل تسخيف آرائهم وأطوارهم وأفعالهم واعتبارها جميعا من عمل الشيطان مضيفا اليها أقبح الاوصاف ولكن رغم تشابه الحالتين في الجملة فانه يبقى فارق كبير بين بهدلة الزندقة في يد الرجل المؤمن وانسحاق الفلسفات اللامادية في يد الفيلسوف المادي على قدر ما يرى ويسمع المثقف الكردي الناشىء فانه من

الممكن ان يجري بحث الزندقة في بلد للمؤمنين كما هي بلا زيادة أو نقصان، ثم يجري تفنيدها بالادلة المستنبطة من الايمان وقد حدث ان زنادقة كبارا ألفوا الكتب في الزندقة ونشرت بل ان بعضا من ادلة الزندقة الموجهة ضد جوانب بالغة التزمت للاراء الغيبية قد حازت عناية علماء الدين ، لكن القارىء الكردي لم يسمع خلال ثلاثين مضت على وجه الاستقلال غير اللحن المتفرد المتوحد للمادية ولم يتجرأ أحد ان ينتقد بصورة مباشرة ايا من مصادر وأسس الفكر المادي او يقارنه الى فلسفة اخرى او ان يحرك الشفة في عدم تحقق البشارات الحلوة المنتظرة من الفلسفة المادية او ان يرجح حياة عامل سويدي ودانماركي على حياة العامل الروسي .. خلاصة القول ان تحريم الفلسفات مما عدا المادية على الناشئة الكردية جاوز حرمة الزندقة في نظر المؤمن وسد الابواب دونها ، ولا ابالغ اذ اقول اني وجدت عالم الدين الكردي في حلقة من اصحاب الثقافة الحديثة لم يجرأ ان يدافع بطلاقة عن كثير من المعتقدات الاساسية في الاسلام ولا استطاع ان يدعى ارجحية قواعد الاقتصاد الاسلامي على الشيوعية . انا لا اروم من قولي هذا دعوة الشيوعي الى هجر عقيدته بل اني لم أقل حتى الان في كل ما كتبت ونشرت شيئا عن حقيقة الاديان السماوية وعن الوحي وعن ماهية الخالق فما سالت من قلمي ، حتى اللحظة هذه ، كلمة واحدة ترسم خطا فاصلا بين المادة والغيب أو تسخف المادية في مقابلة الدين او اية عقيدة مثالية وغيبية مطلقا : ان ما فعلته وكتبته كان عن اظهار الخطأ والنقص في التصورات المادية التي ساقها شرح موضوعاتي . عندما وضحت في الجزء الاول من كتاب (حاجى قادرى كويى) دور طلاب الدين ، عبر التاريخ ، في ربط اجزاء كردستان بعضها ببعض ما قلت كلمة واحدة في مقدار صحة وخطأ موضوعات الدراسة الدينية او اني في اعتزازي ككردي بشهرة وشخصية مولانا خالد النقشبندي [الشهرزوري] ورجال اخرين مثله ما قلت ان مذهبهم حق او ان التصوف مفيد : اني لم أظهر حتى الان [والكلام يرجع الى سنة ١٩٧٧] خيطا واحدا من نسيج عقيدتي في بيان ماهية الافكار المادية والغيبية وما زدت على

ان اخضعت للنقد تلك التصورات المادية السطحية التي أصادفها في كتاباتي حسب فهمي للاشياء دون تردد او خوف ، كذلك فعلت في شأن المؤثرات المعنوية الاجتماعية والتأريخية التي لا يرحب بها الفكر المادي ويحاول التقليل من أثرها او انكارها بالمرة او يلجأ الى التأويل في مصادرتها لحساب الفلسفة المادية فحاولت ان اعيدها الى مكانها الصحيح حسب قناعتي . وفي واحدة من فرص المحاورة الودية مع شيوعي ، بينه وبيني مودة ومعرفة ، دار الحديث حول مناقضات الفكر المادي واللامادي قلت ان المفكر المادي لا يرى حرجا في تصديق الرواية التي تقول ان قطة في قرية بسفح جبل مثقل الذرى بالثلوج شرعت في بعض نهايات نهار احد الايام تنقل صغارها الى الجانب الاخر للوادي الذي باسفل الجبل وفي الليل حصل انهيار ثلجي دفن القرية بأغلب من فيها وما فيها ، او ان كلبا انتابه حزن مفاجيء فما لبث صاحبه ان مات في يوم او يومين ولكن المفكر المادي نفسه يرفض أن رجلا مثل الحلاج كان يملك من الاحساس بالغيب مقدار ما ملكته القطة ، فكيف يجوز الاقرار للقط باستشعار المغيب وانكاره على الحلاج ثم الادعاء بعد ذلك ان الاقرار والانكار نابعان من حب البشر ومن الفكر الرائد الصحيح الصالح ؟ فقال في الجواب ان رجال الدين بالغوا في الاحتيال على البشر وتضليله وتسخيره لاطماعهم فكان انكار علمهم بالمغيبات داخلا في حكم الواجب ، فقلت اني أتقبل جوابك هذا على شرط ان تترك دعوى العلمانية وتقديس المعرفة والانصاف .. و .. الخ وان تعترف بانك انسان انفعالي . ترى من هذا اني لم أقل ان الحلاج علم المغيبات او لم يعلم .. وفي مرة اخرى حدث الكلام الاتي ضمن محاورة قصيرة مع صديق شيوعي اخر فقد كنت كتبت مقدمة عربية لديوان شاعر لاهوتي كردي قلت فيها ان الدين ليس شيئا خارج نطاق مصلحة المجتمع او أنه عديم الاعتبار والاحترام عند العامة ، فافضى بي سياق الكلام الى ما يلي : أتستطيع الفلسفات والعقائد الثابرة على تقليل دور الدين في الاجتماع والتأريخ

ان تدوم في الوجود قدر دوام الاديان ؟ هل تعيش الفلسفات الاف السنين كما عاشت الاديان ؟ فقال لي ذلك الصديق الشيوعي انه من الممكن اعتبار ما قلته حول تأثير الدين ومقامه في النفوس صحيحا صحة تامة ولكن ما جدوى هذا الصدق اذا كان رجال الدين المحتالون يشترون مثل هـذا الكلام بالذهب ويتلقفونه من الهواء الطائر ؟ فقلت له : ما ذنبي أنا في امتعاض فلسفة تضيق بصدقي او تعتبره ضارا بمصلحتها ؟ على الفلسفة ان تستقيم على سكـة لا يضرها فيها الحقائق وليس لها ان تطلب من الناس انكـار الحقيقة وتلفيق الكذب من أجلها هي ، ثم ان قابلية العقيدة الدينية للبقاء مدة أطول من عمـر العقائد المادية هي أيضا حقيقة في ذاتها يجب ان تجلب انتباه المفكر المادي وغير المادي للعثور على منابع تلك الديمومة • ما أعجب ان يتطوع ويتحمس ملايين الناس في حمل الكلفة لادامة عقيدة هي بنظر الفكر المادي العلماني لا ارتباط لها بالحق وبالمادة وبمصالح الناس ، على حين تعجز العقيدة المادية التي تدعى أنها علم مرفوع للخير والمصلحة والنعمة تعجز ان تدوم اذا لم تتداركها قوى الامن والجيش • سواء قلت انا او سكت ، وسواء رضيت انت او كرهت فليس الدين ذلك الشيء الفاقد للجذور والعروق في قلوب الناس على النحو الذي تحاول المعادلات المادية الضحلة في نواحيها الاجتماعية أن تقيمها عليه •

وحين يأتي المفكر المادي فيعزو دوام الاديان وبقاء احترامها في القلوب الى فنون الاحتيال وخداع النظر التي يمارسها مضللو الجماهير المشعوذون المهرة من رجال الدين في سبيل منافعهم الدنيوية فهو ــ اي المفكر المادي ــ بذلك يخبط بقدميه حقيقتين كبيرتين : اولاهما انه اذا صح ان الدين هو ذلك الشيء القليل الاعتبار والفاقد للجذور في القلوب على حسب ما تستنتجه التفسيرات الفلسفية المادية فكيف يتنازل الشخص المعتاد من عامة الناس عن ماله بحيلة من متشيخ نصف أمي تكريما لعقيدة قليلة الاعتبار عديمة الاساس ؟ لماذا لا يستطيع ذلك الشيخ المشعوذ ان يطلب من الناس أموالهم ، وفي بعض الاحيان ارواحهم ، الا بذلك الشيء القليل الاعتبار وعديم الاساس ؟ والحقيقة الثانية

هي : ما بال الفيلسوف المادي لا يستطيع بكل ما يدعيه من مبادىء مصيبه محبة للبشر ان يفعل عشر معشار ما يفعله المتشيخ المضلل من جلب النـاس وسحبهم وراءه اذا لم يقم الجندي والشرطي بدفعهم نحو فلسفته مـن بـاب الارهاب ؟ كيف يمكن ان يقدر ضريح رجل ميت من الف سنة جلب الناس جياع لا مال لهم ولا وجاهة من مسافات هائلة فيدور بهم حول ضريحه ويطوف باليه مرفوعة على اعلام فوقه ويستدر من عيونهم زخات ثرة من دموعهم ولا دخل في ذلك لسلطة دنيوية او تهديد بالمهلكة أو طمـع في مصلحة ؟ كيف يسوغ التوقع لبطلان هذه القوة الدينية الضخمـة ببعض المعادلات المادية المبتورة المنقوصة وهي في الواقـع لا تبطل بل تزداد زخمـا وفاعلية . لعلك ترى أيها القارىء اني لا اقـول بالسلب او الايجاب عـن العقيدة التي تعـود رجلا باكستانيا الى ضريح الكيلاني وغاية ما افعله هو اني اجاهر بالظاهرة المذكورة في وجه القارىء مع تساؤلات شاكة لعلها تمنعه من التسرع في قراره النهائي بتسليم لحيته الى عقيدة دأبت على تكذيب اي شيء لا ينسجم مـع اهدافها سواء ملكت في ذلك حجة او لم تملك .

وهنا اعرض عليك نموذجا من الاشتباك بين الفكر المادي والدين حتى يلتفت انتباهك مثلي ، الى مسارعة المادية لتثبيت عقيدتها ومصلحتها حتى ولو كانت البراهين التي تستند اليها في ذلك مخالفة للاسس والعناصر الفكرية التي نبعت منها المادية ابتداء :

في العدد ٢٥١٢ من مجلة روز اليوسف ليوم ١٩٧٦/٨/٢ نشر مقال للدكتور فؤاد زكريا بعنوان « ماركس وافيون الشعوب » والمقال يفتح لعينة صفحة من الخصومة التي كانت وما تزال قائمة بين فكر اليسار وفكر اليمين في مصر ويعرض علينا في الوقت نفسه كيف يتم التستر على حقائق كبرى في عز الظهر ، من أجل رد الهجوم وتبرير الذات . والغريب في الامـر انه لم يظهر حتى الان [سنة ١٩٧٧] أية علامة تومىء الى ان احدا من الناس انتبه الى هذا التستر .

وكمـا ترى من العنوان فهو يصدى لرد المتهاجمين على قولـه ماركس البالغة الشهرة في ان الدين افيون الشعوب وقد اعتبرت في اغلب مواطـن العبادة الدينية أكبر جنحـة اجترحتها الماركسية • بعـد مقدمة متمايلة الى الماركسية وبمقتضى مصلحة راعاها للجبهة الماركسية ، ولاسيما بين المسلمين، كتب الدكتور زكريا ما يلي :

« ولابدأ اولا بالسياق الذي وردت فيه هذه العبارة : ففي كتاب (مقدمة لنقد فلسفة الحق او القانون عند هيجل) وهي من كتابات ماركس المبكرة يقول : « ان العذاب الديني تعبير عن العذاب الفعلي وهو في الوقت ذاتـه احتجاج على هذا العذاب الفعلي • فالدين هو زفرة المخلوق المضطهد ، وهو بمثابة القلب في عالم بلا قلب ، والروح في اوضاع خلت من الروح • انه افيون الشعب • » (لاحظ انه استعمل كلمة «الشعب» بصيغة المفرد لا الجمع كما هو شائع) •

بعد هذا يدافع الدكتور زكريا عن هدف ماركس في قولته المشار اليها ويثابر في غاية الذكاء والمعرفة نحو توفير اقتناع القراء فيقول ايضا ضمـن استطراده ما معناه ان من حق الانسان المظلوم ان يطمع في حياة ثانية بعد الموت ينال فيها الراحة ويطمئن ذاته ايضا بوجوب وجود عدالة في هذه الدنيا وان تأخر تحقيقها الى ما بعد الموت ، ولكن الدكتور زكريا رغم كل الذكاء وحضور الذهن الذي يمتاز به ، وربما بسبب ذلك وليس رغم ذلك ، لا يحمل نفسه على الجهر بان الدين لم يكن فقط محل رجاء وتمجيد الفقير المظلوم فالغالبية من الاغنياء والاقوياء يؤمنون بالدين وكثيرون منهم متدينون بالفعل وكثيرا ما يرتدون عن الظلم برادع من رسالات الدين وعذاب يوم القيامة • ثم ان الدكتور زكريا يتغاضى عن أمر اخر اكثر خطورة ولا ينسجم مع قولة ماركس المذكورة جملة وتفصيلا وهو ان كثيرا من الشعوب في القديم والحديث كانت تؤمـن بالدين ولا تؤمن بالبعثة والقيامة والجنة والنار ، حتى ان دين اليهودية في اول

نشوئها على ايام النبي موسى لم تتضمن ذكر الحياة الاخرى وبعد ازمان الى ايام دانيال انبعثت الاشارة الى بعثة الموتى [مقالة ــ انبياء العهد القديم ــ للدكتور كامل سعفان ، العدد ١٠٣ من السنة العاشرة من مجلة الرسالة الاسلامية التي تصدرها وزارة الاوقاف العراقية] . والعرب كانوا قبل النبي محمد (ص) وعلى ايامه الاولى يعبدون الله ويحجون مطوفين بالبيت الحرام ولكن بلا عقيدة في البعثة حتى كان الاسلام سببا لاقرارهم بالقيامة وبالجنة والنار . خلاصة القول ان الطمع في الجنة والخوف من النار لم يكن فقط وسواسا في قلوب الفقراء وحدهم ولا كان من اركان عقيدة كل الاديان . واذا رجعنا الى تأريخ مصر القديم وجدنا الفراعنة منشغلين بفكرة الحياة بعد الموت اكثر من انشغال الاخرين بها حتى بنوا الاهرامات المحيرة في منحى هذه العقيدة . على اي حال ان اقوالي هذه مع ما فيها من استدراكات هامة على تصورات ماركس فهي ليست الغرض الاول من استطراداتي ففي المقال جانب اخر على غاية الخطورة من حيث مغالطته للافكار فالكاتب بعد مقدمات مقاله يشرع في شرح الاسباب التي حدت بماركس الى معاداة الاديان فيبدأ اولا بذكر الصلة بينه وبين اليهودية وكيف انه ــ ماركس ــ كان غير راض عنها وانه ، مثل سبينوزا ، خرج عن اليهودية كلية ، ويستطرد الكاتب في كلامه فيقتبس العبارات التالية من احدى كتابات ماركس القديمة تحت عنوان « المسألة اليهودية » :

« لو وجد تنظيم للمجتمع يلغي الشروط الضرورية للامساواة ، وبالتالي يقضي على امكانها ، لاصبحت اليهودية مستحيلة . وعندئذ ينقشع الوعي الديني اليهودي كما لو كان ضبابا كئيبا بدده هواء المجتمع المنعش » . ثم يقتبس ما يلي ايضا من (المسألة اليهودية) نفسها : « ان المال هو الاله الغيور لاسرائيل ، الذي لا يمكن ان يوجد اله قبله . والحق ان المال ليحط من قدر كل آلهة البشر .. » .

بعد هذا يشرح الدكتور زكريا تجربة ماركس مع المسيحية وكيف ان الكنيسة كانت قد آلت الى مركز للسلطة غير المشروعة وعبادة المال والظلم ، فكان اصحاب الفكر النير يقاومونها على وجه الضرورة كما كانت الكنيسة عدوة لكل ما هو علم ورأي مضيء حتى يقول : « وعلى ذلك فأن ماركس لم يكن الا واحدا في سلسلة طويلة من المفكرين الذين افرزتهم الحضارة الغربية، والذين وجدوا لزاما عليهم ان يهاجموا الدين دفاعا عن حقوق الانسان » . واثناء هذا الكلام وما سبقه يقول لنا الكاتب ان مناوءة اولئك المثقفين للدين نجمت عن حقيقة كون تجربتهم جابهت بهم دينا ظالما طامعا محبا للجهل ، ثم يستمر في كلامه حتى ينحو به ناحية الدين الاسلامي فيشرع في مدحه ويستهل كلامه في ذلك بما يلي : « يمكننا اذن ان نقول ان تجربة ماركس مع الدين كانت تجربة مع تراث ديني رجعي في صميمه .. » حتى يصل الى بيان ما يلي :

« على ان هناك تجربة اخرى لم يكن من الممكن ان يعرفها ماركس لانها تنتمي الى تراث حضاري لم يعرفه معرفة كافية فضلا عن ان معالمها لم تتحدد الا في عصر لاحق لذلك الذي عاش فيه ماركس . تلك هي تجربة الدين كقوة تحررية يستمد منها المجتمع طاقة روحية تعينه على التصدي لطغيان الاستعمار الاجنبي . وهذه التجربة لم تظهر ملامحها الا في بلاد العالم الثالث وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر وان كان تأثيرها لم يتضح بجلاء الا في القرن العشرين . » . وبعد تقصيات اخرى كثيرة يقول في ختام المقال :

« .. وان موقف ماركس من الدين كان مرتبطا بعصر معين وثقافة معينة ، وان ماركس لو كان عايش تلك التجربة الشديدة التعقيد التي عاشتها مجتمعات العالم الثالث في عصرنا الحاضر لكان من الجائز ان يعدل احكامه البسيطة المباشرة بحيث يعمل حسابا للدور التحرري الذي قام به الدين في بعض هذه المجتمعات . » . [لا غنى لاحد يقرأ هذه من المقال] .

لقد اتخذ اليسارا لمصري هذه المقالة درعا لرد مقدار كبير من الهجمات

على الماركسية باسم الدين ، والغريب في الامر انه لم يتقدم احد ، علـى فدر علمي ، ليقوم مفاهيم المقالة في ضوء التأريخ والعلم والماركسية نفسها حتى ينكشف على وجه اليقين حظها من الصواب والخطأ وهـل ان مضامينها ، ولاسيما سطورها الختامية تدافع عن الماركسية أم تقوم بتفكيكها .

اسارع اولا لاقول ان المسيحية في اول ظهورها والى مدى بضع قرون كانت تضحية بالذات وموتا وشنقا وتمزقا في مخالب الوحوش كمصير محتوم للكثيرين من متابعيها والمنتسبين اليها فاين هذا من ان تكون هي ظالمة او خادمة للظالم وكان ماركس يعلم هذه الحقيقة بتمامها ، واحسن من معرفتي ومعرفة الدكتور زكريا بها ، وكان مطلعا على أقدم تواريخ اليهود ، من زمن موسى ، وهي مباينة للتأريخ اللاحق لهذه الديانة والقومية . ولا اعتقد ان ماركس كان يجهل الاسلام قديمه وحديثه حتى ان كثيرا من كتابات الماركسيين حسبت الاسلام ونبيه من جملة انصار التقدم . فلا ماركس يسلم ولا انت وانا نسلم بان الاسلام انقلب نصيرا للحرية من يوم زحف الاستعمار على العالم الثالث . وانه لحق اليقين ، لم يلد تأريخ الاسلام الحديث كله ولا كان في امكانه ان يلد واحدا في مقام علي بن ابي طالب وعمر بن عبدالعزيز من مراتب حب البشر ومناهضة الظلم وتقديس العدالة والروح الديمقراطية . ماركس كان على علم بهذه الحقيقة الناصعة وبصرف النظر عن ذلك أفلم يكن قد سمع شيئا عـن الحروب الصليبية وصلاح الدين الايوبي ؟ وابطال اخرين مثله ؟ على انـي اتخطى هذه الامور واقوم الاسطر الاخيرة من المقالة من زاوية ما اذا كانت دفاعا عن الماركسية في حقيقتها :

اظن ان ماركس لم يمر بخياله ان سيأتي يوم يجد فيه اصدقاؤه ان خير ما يدافعون به هو قولهم للناس : لا تؤاخذوا ماركس على كلامه المستهين بالدين فقد كان رجلا قليل الاطلاع غير خبير بالتأريخ القديم والحديث فلم يتجاوز علمه بالدين الا ما كان يرى منه بعينه .. لا اعتقد بوجود خصم واحد لماركس

يحاول بعين مفتوحة ان يخفض مقام ماركس في سلم العلم والفلسفة الى هذا الحد ، ان لم يكن لشيء فمن باب حفظ احترام ذاته خشية ان يبدو في نظر الناس رجلا نصف امي فليس يوجد مثقف يجهل سعة اطلاع ماركس على موسوعة تأريخ الأمم في جملة نواحيه من اقتصادية واجتماعية ودينية وعلميه وما لا يحضرني اسمه . ان ما اذهب اليه في تعليل بعض اقوال ماركس وارائه التي لا تساير ظاهر المنحى العلمي الموثوق منه شيئان لا ارتباط لهما بالجهل وعدم الاطلاع ، وما رأيت حتى يومي هذا احدا من الكتاب والمتكلمين تطرق اليهما وأولاهما اعتبارا في دراسة ماركس والماركسية عموما : اعتقد ان ماركس كتب في ضوء مصباحين شديدي الاشراق والاشعاع ، اولهما هدفه السياسي الذي حاول جمع بروليتاريا العالم عليه ، وثانيهما هو وضع بصمة رأيه في كل المواضيع الخطيرة التي عليها بصمة سابقة ، ولا استطيع هنا ان اتابع كلامي هذا الى الحد الذي يقتضيه تنوير الموضوع ، والاشارة المقتضبة التي مرت كانت بقصد نفي اوهام الجهل وعدم الاطلاع ونقص الخبرة عن هذا العبقري العملاق . اذا كان ماركس هو ذلك الساهي الذي يبدو من خلال دفاع الدكتور زكريا عنه فكيف امكنه فوق ارض ملساء من المادية المناوئة للغيب والدين وفي مواجهة عالم خالطه العلم بقوة أن يصنع من افكاره وارائه عضادة يستنهض بها طبقة الفقراء الى الحد الذي تطاول فيه اصحاب المال والسلطان ، وقبل الفقراء شغل بها كل مثقفي الدنيا اما بالتتلمذ عليه وصداقته أو بالعداوة الصريحة . لا جرم ان مدى الكلام هاهنا فسيح جدا ، وكله بتحدى اراء الدكتور زكريا في ماركس ، ولكني اكتفي بأن اضيف الى ما سبق أن قلته ما يلي ، وهو انه لو كان ماركس أسير تجربته الشخصية ولم يتعد نطاق بصيرته وفلسفته حد المنظر المرئي لعينه على النحو الذي يصوره به الدكتور زكريا اذن لما أوقعت به لعبة « استغمايا » الرؤية المباشرة في ميدان الدين فقط بل لاوقعت به في المبادين الاكثر خطورة من أقتصادي وسياسي فنقول فيه انه لو ولد ــ ماركس ــ بعد خمسين سنة من يوم ميلاده الحقيقي

لتخلى عن جانب كبير من ثوريته بسبب أن تجربته الشخصية كانت ستنهض مع بروليتاريا تطورت كثيرا عما كانت عليه في القرن التاسع عشر ففي خلال نصف قرن من الزمان طوت البروليتاريا مـدى وسيعا في تحصيل حقوقها الضائعة وتبدلت خلالها عقيدة عامة الناس في العدل والظلم والصلاح والفساد الى الاحسن في الميادين الاجتماعية كافة وبهذا كان من المحتم ان يعدل ماركس من نظريته في الطبقية الى مستوى برنامج اصلاحي فيزول منها ما يضفى عليها من صفات الازلية والابدية التي يتحمس لها متابعوها حتى اليوم باصرار أقوى وحرارة أشد بالقياس الى قرن مضى • اني وان كنت أولي التجربة الشخصية اعتبارها في تكوين اساس العقيدة وشمولها فان لي في ذلك ملحوظتين فيما يخص ماركس :

١ ــ ان نفس ماركس من النفوس التي تخضع التجربة الشخصية للبرنامج الذي تميل اليه [وليس لي مجال متابعة هذا الرأي بالادلة] •

٢ ــ اذا سلمنا بنص كلام الدكتور زكريا فيما علل به موقف ماركس من الدين وجب الاخذ بالمعيار ذاته في تقويم الماركسية مـن كل وجوهها فنجردها من العلمانية والفلسفية ونقول انها دردشة رجل ناقم قليل الفهم •

ورغم ذلك كله لابد من الاقرار بأن مقالة الدكتور زكريا كانت في زمانها ومكانها ذات أثر ملحوظ فان كلتا جبهتي اليسار واليمين انطلت عليهما المقالة لصالح الماركسية فقرأوا منها فقط ما أحدثه تصور وتحليل صاحب المقالة من نفض تهم ظالمة من ماركس والماركسية ومن تزكية مطيبة للخواطر عند المسلمين• ومن الواضح ان هذا النوع من الاقالة والتزكية يكون من منظور (التاكتيك) على اكبر جانب من النجاح لان الاطراف المتصارعة في ميدان السياسة احوج الى براعة التاكتيك ، أما الاراء الفلسفية فهي لا تخضع في المعترك اليومي الى المقارنات ، والناس لا تقبل ان يوضع معتقدها في التجربة والتحقيق بل ان

المعتقد خليق ان يزداد حرمة وقدسية عند متابعيه حتى ولو ظهر فيه العيوب بالجملة ، والذي اعلمه من حماس اتباع العقيدة السياسية ، ولاسيما الماركسية، أنهم يدافعون باصرار عن جوانبها الاكثر ضعفا وسطحية ويهاجمون بضراوة اعنف النواحي الاقوى والاسلم في العقيدة التي يخاصمونها • ولقد شهدنا من هذه الكوة ايام ان كان متابعو ماركس في المنطقة الكردية حازوا شيئا من القدرة فانهم انشغلوا بفضح وتشهير خصومهم الذين كانت لهم في النضال الوطني سمعة شريفة ويقولون صراحة انهم يفعلون ذلك لان هؤلاء الشرفاء هم موضع ثقة عند الناس وليس عليهم عيوب واضحة فهم أخطر من اعداء اخرين لا يملكون قوة جماهيرية وسياسية وشوائبهم واضحة • بلى : اني اعلم ان السياسة تتعامل مع سواد الناس ويستوي مثقفهم واميهم في عبادة المظاهر ولكني اذ كنت لا أملك في السياسة ناقة ولا جملا فما الذي يستدعي مني أن أسلم مقود وعيي ناسا من عبدة المظاهر وذوي نوايا خاصة بهم فانظر الى الدنيا من وراء عويناتهم هم ؟ لماذا أحتال على القارىء الكردي المسكين بتمويه الستار المسدل على المقولات والنظريات على أنه هو حقيقة الشيء المخفي تحته ؟ ان خداع النظر الذي يمارسه المحتال من المشعوذين السحرة حتى المتدروش الملفق •• حتى صاحب اللسان الذرب المضلل •• حتى السياسي الافاق •• حتى اصحاب العقائد الفلسفية المزحلقة ، يحقق هدفه بسبب من عبادة المظهر وضحالة النظر عند عامة الناس • وبافتراض انعدام المحتالين جميعا فانه يلزمنا مقدار من احترام وعينا وانسانيتنا يكفي لنقد الخطأ في المواقف والمقولات والعقائد والفلسفات وللقدرة على رفضها • لقد جاء العلم ورفض التسليم بظاهر الزرقة والسعة والرفعة لما كان يسمى (سماء) وفقأ كل العيون المنخدعة بالمظاهر حين اثبت الفراغ و (اللاشيئية) والانعدام لظاهرة السماء المتخايلة للعيون ونفذ خلال ذلك العدم الى النجوم التي كان اليقين حاصلا بعدم امكان الوصول اليها • اذن كيف تتهيب ابراز الخطل في رأي من يقول ان الدين كان سلوة الفقراء فقط أو ان عبادة الأله كانت في كل الاحوال

وسيلة الى جنة موهومة ؟ وما بال الذين احترموا هذا التعليل الفاسد لعبادة الله يخافون من ذكر فساده ؟ ما الذي يمنعهم من سبقهم لك ولي في طـرح حقيقة المسألة ؟ فاذا تصدى الدكتور زكريا بذكائه ووعيه لحبك خداع نظر فكري ، فرأيناه بعين مفتوحة ولمسنا فنه الماهر بلا عوينات مستعارة نكيـف يسوغ ان تنشق مرائرنا خوفا من وضع الاصبع على حقيقة المسألة ؟ واولئك الذين يرون سلامة عقائدهم في التغاضي عن خداع النظر المذكور ، ما بالهم لا يعتنقون عقيدة مستغنية عن التمويهات وعن وأد الحقائق ؟ ما اغرب منظرا في الربع الاخير من القرن العشرين أن يضيق الرجل المتعالم المتظاهر بطلب الحق ، يضيق بذكر حقيقة من الحقائق الصغيرة ويحرس ستارا كاذبا منشورا على وجه الحق !! أسفا على تعاقب اجيال شعبنا الكـردي وجبهـة عريضة مـن مثقفينا على التمسك بعقائد ظهر بطلانها حتى للعين التي ترى بنصف نظـر ، ومن كان منهم يستبطن شيئا من النقد والعتب لتلك العقائد المعلولة لا يجرأ ان ينبس ببنت شفة . واذا حرك اللسان بنأمة نقد قصرت به جرأته ان يكتب كلمة واحدة في توضيح خطأ ما يراه منها فاسدا .. واقولها مرات ومرات بأسف شديد ان المثقف اليساري الكردي يبالغ بقياسه الى مثقفـي الدنيا كلها في التمسك بالشعارات والنصوص للنظريات التي ظهرت قبل مئة سنة فلا يرخي منها اصابعه حتى يبدو كأنه متعوق في ذروة جبل أجرد شاهق أنشب اظافره في نجيمة اذا افلتها تبدد جسمه من حالق مزقا . ان انصياع المثقف اليساري الكردي وامتثاله للنصوص اليسارية المتراجعة المتقادمة يحمل كل سمـات الدروشة المذعورة التي تكون على سبيل الحتم وبحكم طبيعة الاشياء علامة فارقة في مجمل الصفحات من سفر حياة ووجود أمة متخلفة ، عديمة الحيلة ، مقلدة ، صفر اليدين ، بلا ظهير ، مجزأة كأمة الكـرد . ان المناضل الطبقي الكردي يستمد شرعية نضاله من تلك النصوص القديمة التي جاوزتها غالبية الاحزاب الشيوعية حتى صارت تعتبر عدم فضحها وابطالها دليلا على التخلف والرجعية فلا يكن عندك ريب في ان الشيوعي الكردي حين يسمع بوقوف

الحزب الشيوعي الفرنسي او الاسباني معارضا لاحد قرارات الحزب البلشفي الروسي تتشنج عروقه ويقف شعر رأسه وتضيق بوجهه الدنيا حتى ان حدوث خرم واحد في الزنزانة الفكرية التي استأنس بها يحيل في نظره خيط نسيج الأنسانية والبروليتاريا والتقدم والتحرر الى صوف محلول غير مغزول . لاشك ان امة الكرد في مجموعها اكثر تخلفا من الامم المجاورة لها ، ومرة أخرى لاشك ان شيوعيا كرديا بقياسه الى شيوعي من أمة أخرى اكثر تخلفا من فرد كردي اعتيادي : ليس هذا فقط بل انه على قدر ترسخ الشيوعي الكردي في العقيدة الشيوعية وأرتقاء رتبته في الحركة الشيوعية العالمية تهبط جرأته في ذكر اسم (الكرد) وتعلو في الدفاع عن أمة اخرى : ان مسؤولا كبيرا جدا في شيوعية الشرق الاوسط ، اتحاشى ذكر اسمه ، هو كردي قد صرح مرارا ان صفته الكردية حمل ثقيل عليه . ولو سكت ولم يصرح بشيء فان الحقيقة المذكورة في تصريحه بادية عليه فانه تناهى الى السكوت المطلق عن مناصرة الكرد طول حياته على حين لم يترك أمة سوداء أو بيضاء أو حمراء أو صفراء على اديم الارض دون ان يقيم المناحة عليها أو يدافع عن حقوقها . ان ظاهرة (اتهام الذات) البادية على الشيوعي الكردي في صدد المطالبة بحقوق الشعب الكردي على وجه الاستقلال تبدو بالتمام على القومي الكردي أيضا في زيادة ابتعاده عن تهمة الشوفينية بقياسه الى قومي عربي او فارسي أو تركي على حين يعجز الكردي بسبب مسكنته وافلاسه وضعفه ان يكون شوفينيا حتى من باب التظاهر شأنه شأن الخروف الذي يعجز عن تهديد غيره بالضراوة وبأكل اللحم . فانظر الى اي حد وصلت بلبلة حال الكردي من مراتب الاسى حين يتفاقم احساسه بقلة الاعتبار الذاتي الموروث من الوف سنوات التبعية والخادمية حتى يجد مناضله الثوري البراءة من تهمة عبادة (العرق) في نظر اسياده التأريخيين ورفقائه ! الجدد بالبصق على الذات وشتم الكرد وكردستان درء لاحتمال معتبتهم اياه في حين كان المنتظر [بحسب احكام روح العصر] ان تنعكس الآية فيعتذر اسياده القدماء منه ويحترموا

أرومته ويأتوا عن سبيل رعاية مشاعره فيمسحوا شيئا من هضيمته الازلية بوصفهم (رفاقا) له في عصر النور . كل ما حدث في اليسار الكردي من صنوف (تنقيص الذات) على حساب الاعتزاز القومي ، منذ وثبة ١٩٤٨ الى ما بعد تموز ١٩٥٨ وسنوات ما بعد ١٩٦١ وحتى يومنا هذا نبع مباشرة من شعور ذل التبعية والخادمية ونقص الحقوق وانعدام الكيان والجاه ومن التشرد والتجزئة وسائر العلل الكارثة فصار يرشح من لسان وقلم قسم كبير من يسار الكرد على صورة لم يظهر لها مجرد الشبح في يسار أية أمة اخرى . ان مثقف اليسار في الامم التي صارت فيها المسألة الكردية قضية ، لا يقر الا في الاندر الاندر ، بوجود حقوق للشعب الكردي ودع تطييب خاطره ولو بالكذب عن ظلم حل بالكرد فيما سبق من الزمان !! اننا احرياء ان يركبنا الذهول اذا اعترفت (تودة) ايران بالوجود الكردي اعترافا لم يكن الاستعمار يستنكف منه لخلو ذلك من أية كلفة أو صرفة فلم يكن يختلف عن الاقرار بحقوق الترك والفرس وغيرهما من الامم . وفي هذا الموضع بالذات يظهر على اليسار الكردي مجددا آثر القصور والمسكنة الكردية التأريخية فانه اذا حدث ان الاستعمار اعترف بحق شعب غير الشعب الكردي عزا اليساري الكردي هذا الاعتراف الى فاعلية نضال الشعوب في ارغامها الاستعمار ضد رغبته اما اذا حدث ان ذكر الاستعمار حقا من حقوق الاكراد على وجه من الوجوه تصدى له اليساري الكردي بالاعتراض وتكلف لتعليل هذا الذكر المجرد بوجود نية شريرة فكأن الكردي يتخطى حدود الادب والحياء اذا جرى ذكره كأية أمة اخرى في هذا الوجود : ارجع الى السجل التأريخي للثلاثين سنة مضت حتى يومك هذا تجد ان تهزىء العرق الكردي من جانب اليسار الكردي هو مظهر دائمي وفي سعة كردستان كلها بدء بالرسالة السيئة الصيت المسماة « الكرد ليس أمة » حتى نشيد « نحن ذئاب واولاد ذئاب ــ قلبا لكلمة (كرد) الى (گرگ) التي تعني الذئب » حتى « معارف قلياسان ــ توهينا من كلمة كردستان في عنوان (معارف كردستان) » حتى حفر قبر

المرحوم علي الكردي (في موضع حدده في توصيته له صلة بكردستان) » حتى قولهم للكردي « قل انا كردي فاذبحك .. » حتى صور اخرى كثيرة في سلسلة متصلة الحلقات لا نرى داعيا لذكرها بالتسمية ، كلها نيل من الشعور القومي الكردي والاعتزاز بالقومية الكردية .. هذه وسواها الشبيه بها من مواقف اليسار الكردي داخل العراق وخارجه مواليد ابوين اعتباريين : اولهما شعور النقص في اعقاب الوف السنين من البؤس والمسكنة . وثانيهما هو الارتباط بحركة سياسية لا تجد في الانتماء القومي السبب الاول للمباهاة والاعتزاز وانما تجدها في الاممية وان تكن الاممية لم تعترف بالوجود الكردي في يوم من الايام . لا جرم ان عدم الاعتراف هذا خليق ان يكون في حد ذاته سببا جوهريا في ضعف احساس الاعتزاز لليساري الكردي المتطرف بأرومة الكرد من حيث ان انتماءه الاول الى الاممية واتخاذها معيارا لصلاح الاشياء وفسادها دون ان تكون الاممية اكترثت بالقومية الكردية يئول تلقائيا الى بطلان محتوى « الكردية » وفراغها من اقوى اسباب الاعتزاز بها . هذه الحقيقة نفسها هي علة اعتزاز الشيوعي الكردي بالحركة البروليتارية في اكناف الدنيا خارج كردستان حتى كأن محصول تلك الحركة رافد يغذي مخزنا في بيته وان روادها أبوه واخوته ..

ان اشد الصفحات سوادا لهذا الشعور بالنقد المتولد تأريخيا من « الاستهانة بشأن الكرد » والذي ظهر اخيرا في اليسار الكردي هو ما نشر في العدد ٤٣ لشهر تشرين الثاني سنة ١٩٧٦ من مجلة «روژی کوردستان ـ شمس كردستان » تحت عنوان « بقيت فقط نخالتهم نجرشها ثانية » بتوقيع « دنيا ديده ــ شايف دنيا » . قلما يحدث ان تتمادى يد فيها قلم ، بتباه وازدهاء وفراغ بال ، الى كسر قارورة الاخرين : شخص مثلي مهما يكن في ركنه المنعزل غير منخرط في كم السياسة وكيفها داخل العراق وخارجه

لابد ان يدوم له ارتباط بالوجود يميز به حد السيف من نعومة شدة الورد ولا أظن ان احدا من اصحاب الضمير في الشعب الكردي افتقد الاحساس بحد السيف هذا : الا فليخربعمـــارك يا ايتها المسكنـــة ويا ايها الافلاس المعنوي ما أنكى زرايتكما بكرامة البشر ! فاعجب كيف انه من بين الوف ملايين الناس الاباعد والاقارب ، خصوما ومحايدين ، يتفرد الكاتب الكردي بمسامحة نفسه في ان يغرز مخلبه في غلالة متهرئة تحشم كرامة ناس من بني قومه ، ايا يكن هؤلاء الناس ، فيمزقها حتى نهاية سدلها • ما صوب كاتب عربي عراقي واحد شيئا زريا كهذا نحو اولئك الطلاب[1] بل ما وجه اليهم أي شيء مهين على الاطلاق • ليس هذا فقط : فالمسموع من تصرف حكومة العراق تجاه اولئك الطلاب شيء مختلف تماما عن قلة الاحترام بكونها دائبة السعي في اعادتهم الى تراب وطنهم • ان صاحب تلك الكتابة الخالية مـــن اللياقة يعلم تماما ان الطلاب الكرد هم كنحل خلية أخذ منها عسلها فتطايرت بلا حمى في كل اتجاه ، فهـــم كتلك النحل في دوامـــة بلا نهاية من محاولة التشبث بالتماسك فلا يستطيعون •• اولى بي ان اقطع كلامي ريثما اثبت هنا طرفا من المقالة المذكورة يحوي أنفس كلماتها !! والمقالة تكلفت الذكاء في مزج شيء من الحكمة بسمها القاتل دفعا للحرج عن نفسها ولكنها لا توفر بها اي عذر وتظل مثالا متميزا في تحريك الشعور بالخجل والتخزي عند اي انسان له قلب وضمير • فليتفضل القارىء في متابعة ما يلي :

« ••• نحن لا نأسف على ناس من النمط الذي ذكرناه لانهم متهيأون للمشي وراء كل ناعق من الاعداء ولكنا اسيفون على شباب [من الكرد] مثقف داخت رؤوسهم بين برلين الغربية وفرنكفورت •

« نخشى أن يئولوا الى مثل الكلب الذي كان فيما بين (تپه لو) و (ليلان) •

---

(١) هم الطلاب الاكراد من شتى ديارهم مغتربون او لاجئون في المانيا الغربية .

« ولسنا في هـذا الكلام بصدد تقريع أحد . ولكن في حومة الكرد كثيرا من جوامع الكلم كل منها يرفدنا بمئة حكمة .

« تپه لو وليان على كثب من كركوك . وكان كلب بلغ الغاية في خفة السماع صوت الطبل والمزمار . كان يعلم انهما من علائم دبكات الفرح وفي الدبكات مآكل دسمة . فكلما سمع صوت الطبل من احدى هاتين القريتين انطلق اليها ..

« اثنان من الچاوشية ـ ضارب الطبل والمزمار ـ الفكهين الاذكياء يقبع كل واحد منهما في بيت بواحدة من القريتين فحين يكون الكلب في تپه لو يضرب الچاوش في ليلان طبله فيفهم الكلب ان الفرح في ليلان فيسارع اليها حتى اذا وصلها سكت طبلها ونقر الچاوش في تپه لو طبله فيرجع الكلب اليها ايضا .. واداماه على الركض ذهابا وايابا حتى فطس . »

مثل هذا الكلام الشائن المتبريء من التردد والتلجلج والقصد حتى انه يبدو مقترنا بجذل القلب واحساس الراحة ما صدر من اي عدو للكرد بل ان اصحاب الشأن في برلين وفرنكفورت ما قالوا شيئا مهينا مماثلا عن الطلاب الاكراد المنتمين عقائديا الى البلد الذي هو بنظر صاحب المقالة جنة الله في ارضه وما من شك في انه لا يوجد كردي واحد يعزو زراية كهذه الى أي طالب منقومية اخرى ، اما صاحب المقال فانه بسبب خوفـه من اتهامه بالعرقية لن يقرب من خطيئة كهذه .

على أي حال ما دمنا نستمع الى الطبل من تپه لو وليلان فالأولى ان نذكر صاحب المقال والمشرفين على شمس كردستان ان نقصا خطيرا قد اعتور تلك الصورة المشوبة بالعداء : بعد انزال الطلبة الاكراد في اوروبا منزلة كلب تپه لو وليلان فلماذا السكوت عن انه في البلدان الاشتراكية أيضـا يدق طبل ومزمار منذ زمان للطلبة الاكراد عندهم وعلى ذلك يكون ما قد تم نصبه

للاكراد شيئا ثلاثيا يشبه لعبة (سى رسكانه ـ الترهيم الثلاثي) وليقبل مني اني (لست في هذا الكلام بصدد تقريع احد) .

اظن ان تسليم طلابنا ليد اعدائنا ينطوي على مكسبين كبيرين : اولهما ان الطلاب يكونون براحة اوفى في يد العدو منهم وهم في متناول يـد ولسان اناس من مثل صاحب المقال . وثانيهما ان رغوة الحقد الطافحة مـن قلب شخص كردي ضد اولئك المنكوبين لا يبرز الى نظر الصديق والعدو اضافة الى ان احتمالات تبديل الميدان السياسي في المستقبل تبقى مفتوحة امام صاحب المقال بزيادة يسر ونقصان عثرة فلطالما آنسنا منه عادة تبديل الميادين حتى ان بعضا ممن لجأ اليه بين تارة واخرى كان من اولئك الملوثين الذين يمشون وراء كل ناعق لعنهم الله .

يرى القارىء كيف ان انهماكنا بالدوران حول موضوع « الفكر » يواجه بنا في سهولة مع الموقف والحدث والواقع فكأنه حركـة النقطة اذ ترسم خطا ثم يرسم الخط صورة الدائرة والمثلث وسائر الاشكال الهندسية وبعدها تكتسب حجما ، وانه لواضح ان انحصار مناقشة الفكـر في اطـار الفكر المحض لا تجدي نفعا كثيرا : علينا أن ندور بالفكر خلال الوضع والحدث والموقف ليتقاسم الطرفان بادرة التصحيح فأما ان تظهر صحـة الفكر بتصحيحه للاشياء المادية او يحدث العكس فتنهض الاشياء المادية الصلبة البارزة بالتدليل على فساد الفكر ، والمقصود مـن فساد الاشياء المادية ليس عدم وجودها فالفاسدات موجودات ولكن يجوز ان يكن غيـر سليمات ، كاذبات ، لا مصلحة فيهن ، غير متساوقات مع الانسانية ، لسن مع الاكثرية ، غير نظيفات ... اما الفكر فهو معرض لكل هذه العيوب ويضاف اليها عيب اخر أخطر هو خيبة بلاغاته ووعوده وآماله . فاذا كانت اسس الفكر ومقدماته باطلة صار الفكر نفسه توءما للعدم . على اي حال ان فصل الفكر عن الواقع يستفرغه من جدواه ويسلكه في صف الشطرنج

والدامة اذ ينحصر اثر علمه وجهله في نطاق اللعبة فلا يبرهن على صحة اي شيء ولا يفضح كذب اي كذاب .. انه لا يفعل اي شيء على الاطلاق . لا جرم ان الرغبة في امتحان الواقع والوجود المادي تجعلني أتابع النتائج فيما ذهبت اليه من مقارنة ديوان نالى بديوان حاجى للتعرف على ما اذا كان صحيحا في معادلة (الطبيعة + الانسان) ان الانسان هو الطرف المتأثر وان الطبيعة هي المؤثرة ؟ هل ان الطبيعة سيدة والانسان خادمها ؟

اعلم ان ادباء ممن يميلون الى التحليل المادي قد يقرون المقارنة بين الديوانين على الصورة التي فعلت ، بسبب ان المقارنة في ظاهرها تبرهن سيادة المادة على الفكر ، أفليس اقتران بدايات الصبا بمصاحبة العشب والدغل صير شاعرا مثل نالى خبيرا في النبات ؟ وان بقاء حاجى مع الرحل في مراتع الربيع أوصلته مراتب السحر في تصوير ذلك النمط من الحياة ؟ فهذه وتلك هي في الظاهر ادلة جديدة تصطف في وتيرة سلسلة من ألف حلقة للادلة المادية (النظرية والتجريبية) تغني مواثيق فلسفتها .

اذا لم يتعمد القارىء زحلقة ذهنه عن مدلولات كلامي فهو يدرك تماما اني لا أريد سلخ المادة من الخطورة التي تملكه ومن دور تقوم به في عملية الوجود والحياة والتطور . ان الذي أقصده هو مقارنة دور الانسان مع دور المادة في العملية المذكورة حتى يوضع الكم والكيف لكليهما في قالبهما الحقيقي . أريد أن نعلم من تفاعل الانسان مع الطبيعة تفاعلا هو اساس ملاك الحياة والتقدم ما اذا كان الانسان ام الطبيعة هو المؤثر الاول ؟ هل الانسان اذ يغدو ويروح ويصيد ويزرع ويستخرج النفط ويرفع الطائرات الى الاعالي ويغوص الى اعماق البحور ويصنع المعامل ويغصب النحل عسله ويستعمل طاقة الهواء والماء والكهرباء والذرة ويقتل غيره ويأسره ويبيعه (وقد يناغيه) ويفعل ملايين الافاعيل النافعة والضارة ، هل هو المؤثر والفعال والمريد ام هو لعبة منصوبة في قبضة هذه الاشياء وهن

المؤثرات الفعالات ؟ اننا اذا أضفنا الفاعلية في هذه المسألة الى الانسان لا نكون ألحقنا الضر اي أحد او أية جهة لان المادة بكل انواعها ليس لها هدف او حق اجتماعي او اقتصادي او سياسي حتى يؤدي التقليل من دورها الى ضمور حقوقها تلك ، لكنا اذا قللنا من الاعتبار الحقيقي لدور الانسان فهو بذاته وجميع طلباته وحقوقه ورغباته ينقص ويخسر ويفقد ، ذلك انه عند تحديد اسهام الانسان في انجاز ماهو خير وطيب فان الجهة المسيطرة على توزيع الانصبة تستبقي لنفسها وللاهداف التي تشتهيها بطرحها من نصيب « الانسان » بعد تنزيل دوره في الفاعلية والتأثير ، ثم انها بعد هذه الخدعة (المادية) تقطع على الانسان مجال عدم الرضا بالقسمة وهو ايضا نوع من تنزيل درجته في ميدان حرية العقيدة • لهذا ولغيره من اسباب كثيرة تنبع كلها مباشرة من رعاية مصلحة الانسان لا يسوغ ابدا ان تكون معاييرنا مجاملة للمادة ومتحيزة ضد الانسان • وفي القديم كانت المادة الميتة تصاغ صنما فتعبد من قبل الانسان • فلنعتصم نحن من استئناف عبادة صنم جديدة من موديلات القرن العشرين عن طريق الفلسفة ••

في مجال مقارنة دور الانسان مع دور المادة على اديم هذه الارض لا يخالجني الاعتراض على القول بان الانسان او الفكر لا يستطيع ان ينتج شيئا ماديا أو عقليا في الفراغ ، وأضيف الى ذلك قولي بانه في غياب المادة لا يوجد عقل او انسان حتى نبحث في دورهما وانتاجهما • ولكن مع ذلك لابد من القول بأن مثل هذه البديهية محل اتفاق جل الفلسفات ، الا خياليين من المثاليين الذين يجاوزون المادة الى المطلق حيث يبنون عالما موهوما من الصور الذهنية ويبتعثون حول تلك الصور جدلا منطقيا ونظريا ويسحبون مشاكل تلك الدنيا الموهومة الى عالمنا ، فباستثناء اولئك المثاليين يجمع غالبية المفكرين من المادية الملحدة حتى صميم الايمان الديني على انه ما لم يكن (المعلوم) موجودا لا يمكن وجود (العلم) ولقد قال علماء الاسلام منذ

اكثر من الف سنة : حقائق الاشياء ثابتة والعلم بها متحقق [في هذه المسألة تفصيل استجد بالمكتشفات العلمية] • واذا كان فرق بين المؤمن بالدين وبين الملحد في هذا الميدان هو ان المؤمنين يعتقدون انه اذا اراد الله ففي قدرته ان يجمع كل علوم الدنيا ما كان منها ماضيا وما سيكون منها مستقبلا في دماغ انسان أمي • وكلامهم هذا أمر منتظر من ايمانهم بالله لان وجوده يقتضي علمه بالاشياء كلها حتى قبل حدوثها من حيث ان علمه منزه من النقص والا لم ينهض بمطاليب الالوهية فما اغرب ان يحتجب المستقبل من علم الله فيكون شأنه كشأنك وشأني في مباغتة الاشياء الحادثة لعلمه • ان الرجل المادي يسلم الى حد ما سابق علم المخترع بما سيخترع وانه من شأنه ان يزيد علمه على علم الاخرين بما ستفعل المكينة الفلانية وما سيحصل لها • فاذا تأتى للمادي أن يؤمن بالله لزم ان يؤمن بالعلم اللا محدود له على مقاس قدرته اللا محدودة • ولست بكلامي هذا اريد ان انوب عن رجل الدين في توفير الادلة العقلية على علم الله ولا اطلب من الملحد ان يؤمن بوجود الله فلا رجل الدين يحتاج الى ادلتي ولا الملحد طيع فينبذ عقيدته بكلام عابر اقوله : اريد ان أبين ان رجل الدين أيضا له من المادية مقدار يقيم به توقف العلم على وجود المعلوم • على ان لي ملاحظة تلقاء هذه البديهية لا يجوز اهمالها : فانا اعلم انه لا علم بدون وجود معلوم وهو من ابجديات المنطق وعلى قدر من السذاجة والضحالة لا يغنى احدا ، وستجد فيما يلي اني قد مسحت من حساباتي حول دور العقل ودور المادة كون العلم متوقفا على وجود المعلوم فلا اقيم معادلاتي على اساس انه لولا المادة لما وجد عقل او انه كان يستطيع التفكير في شيء فانا اقول بوجود المادة ووجود العقل وهما من حيث الوجود متعادلان ولا يصح اتخاذ « الوجود » هدية تقدم الى احدى جهتي المعادلة دون الاخرى ولكن الذي يجلب انتباهي هو ان التثمين الذي يستعمله المفكر المادي في احداث التأريخ يتضمن شيئا هو هذا الذي أبطلناه من انه لولا هذا لما كان ذاك فانه كثيرا ما يأتي المؤرخ المادي فيبطل

دور الفرد في احداث التأريخ بقوله انه لولا الجماهير لما استطاع الفرد ان يفعل شيئا ولا يلتفت الى مساءلة نفسه عما اذا كانت الجماهير المظلومة المسكينة كانت تملك اية قدرة او ارادة في وقوع تلك الاحداث ؟ افهل كانت الجماهير بارادتها الحرة تنخرط في الجندية وتكتسح الابرياء في الحروب فتقتلهم او تبتز الاتاوات من المظلومين بضربات السوط لحساب الظلمة الذين تمارس لهم الجندية ؟ هذه الملاحظة كثيرا ما نلتقي بها ولكنا الان نرجع الى مسار محاججتنا الفكرية في مقارنة دوري العقل والطبيعة ..

تخيل انسانا في ظلمات ما وراء المجرة : انه قطعا لا يقدر ان ينظم شعرا أو يغني نشيدا أو يفكر في وقوع الطلاق . لكن حكاية ارتباط الفكر بالمادة وقيادة احدهما للاخر لا تنتهي بالجملة والجملتين الانفتين ولا تنكشف حقيقة المسألة ضمن هذه المساحة ! فكما ان الفكر لا فاعلية له في الفراغ كذلك الطبيعة بازلها وابدها ونواميس قواها الخفية لا تستطيع ان تنقط نقطة واحدة .. ان تنطق كلمة واحدة .. ان ترتب دبكة واحدة . ان الطبيعة عاجزة عجزا مطلقا تجاه جميع الاشياء التي يتوقف حدوثها او وجودها على الفكر ، ليس فقط من حيث انها لا تستطيع ان تفعلها بل انها لا تملك حتى صورة موهومة مما يسمى « الوجود بالقوة »[1] لتلك الاشياء .

---

(١) وضحت فكرة الوجود بالقوة potential للقاريء الكردي بما يلي : مصطلح الوجود بالقوة هو باختصار يعني ان شيئا او حدثا او صورة او وصفا له احتمال الظهور ولكن لم يتهيأ الظرف والزمان المواتي لظهوره فالطفل يملك قابلية النطق في صورة « الوجود بالقوة » ولكن ينبغي له ان يصل عمرا معينا يستطيع فيه التكلم حتى يصبح لنطقه « وجود بالفعل » . حين اقول ان الاشياء التي يرتبط وجودها بالعقل لم يكن لها وجود بالقوة قبل نشوء العقل اقصد ان المادة التي يذكرها الفلاسفة لا تستطيع ان تدبر بذاتها مستلزمات الوجود بالقوة لانها لا تملك وعيا ولا ارادة حتى تحس بنفسها او تهتم بغيرها . وخواص الحياة والارادة والوعي التي لم يكن لها وجود بالقوة في المادة لا يعقل ان تكون قد نشأت بالتدريج عبر الزمان

←

كل ما هو نشاط (طبيعي) في المادة الميتة و (بايولوجي) في المادة الحية من نبات وحيوان لا يتوقف على البشر : ينبت العشب ، يهز الزلزال سطح

المديد في احشاء المادة لانه لا فرق بالنسبة (للعدم) بين دقيقة الحاضر وما يأتي بعدها من الدقائق حتى نهاية الزمان ، كلهن سواء ، فما واحدة تستطيع ان تستحدث شيئا كان قد استعصى على الدقيقة التي سبقتها . وبغير هذا القول يجب الركون الى قوة سحرية غيبية تكون قد خلقت الحياة اثناء واحدة من تلك الدقائق . وهذا كلام يناقض التفكير المادي بشكل مطلق . ان الفلاسفة الذين يقولون ان المادة في المرحلة الفلانية والظرف الفلاني انبعثت فيها طاقة الحياة يستعيرون من الغيب للمادة صفة غير موجودة ، وهذا من صميم الميتافيزيك ، على حين لا مكان في مقدماتهم النظرية المادية لانبعاث صفة غير كيمائية وفيزيائية وطبيعية وكلهن ذوات (وجود بالفعل) ولا ننتظر من ثقتهم المطلقة بانفسهم وبعقيدتهم ان يحملهم الاضطرار على اتخاذ خطوة ميتافيزيكية عريضة ومتخاذلة مثل هذه فكأنهم على عجل من امرهم في تخليص انفسهم ونظريتهم من التردد والانكار . اذا كان الفيلسوف المادي لا يسلم ان الخالق اودع المادة هذه الطاقة في شكل (وجود بالقوة) فلا مندوحة له من التسليم ان المادة هذه التي يجري فيها كلامنا غير مؤهلة قطعا للتدرج في بناء خاصية داخل نفسها لم تكن موجودة من قبل .

ان تعليل ظهور الخواص غير الكيمائية والفيزيائية والطبيعية ، خواص العقل والارادة والحياة في المادة الميتة له ثلاث طرق يمكن للعقل النير ان يقبل بها وهي :

١ ــ فاما يقال ان الله خلق المادة وصفاتها .

٢ ــ او ان في المادة نفسها قابلية بعث العقل والحياة والارادة فتكون قد حلت محل الخالق .

٣ ــ او ان المادة في ماديتها الخالصة تملك قابليات لم يتسن للعلم وللفلسفة المادية ، بسبب غلبة المادية الالية الميتة على قناعاتها ان تتبادر اليها او تسلم بها . واذا تم قبول هذه النظرية وجب اقامة مادية جديدة في رؤيتها وتصورها واسسها الفكرية كلها من حيث ان عاملا مؤثرا جديدا من كل وجه دخل في حسابات التفكير المادي لم يلتفت اليه من قبل .

على قدر ما استطاع العلم والفكر توضيح الواقع حتى اليوم (سنة ١٩٧٧) لا يستبين النظر طريقا وراء هذه الطرق الثلاثة .

الارض ، ينزل المطر ، يصيد الاسد غزلان المروج ، يخسف القمر والشمس ، تتعاقب السنون .. ولكن في غياب البشر تعجز الشمس والقمر والنجوم والبحار والجبال والاعاصير ان تخصف نعلا ، بل لا يحصل نعل حتى يخصف، ولا توجد رقعة حتى تخاط ، ولا تولد فكرة الخياطة اصلا في قاموس الطبيعة..

في تقابل المادة والعقل وفي ضوء افتراض احدهما دون الاخر يتبين ان كل واحد منها حاكم على دنياه ولكن يجب العلم بان توقف وجود العقل على المادة شيء لا ارادة للمادة فيه فهي لا تعي ما هو العقل وما ذاتها هي حتى تريد ان تعطل العقل ، انها من الاصل لا رغبة لها : المادة بلا وعي ولا ارادة فاذا لم تنشط قوة خارجية لتسليطها على البشر او تصديها له فلا تنبعث منها نأمة بالرضا او السخط ، بالاجازة او المنع ، باطلاق المجال او قطعه . ان ما يحصل بحسب القوانين المادية الازلية يحصل بذاته دون تدبير او رغبة مادية فاذا حصل سبب حدوثه فهو حاصل على وجه الضرورة . ولكن الانسان في جنب الطبيعة او في جنب ما يصنعه هو ليس منقادا فاقد الارادة فهو يستطيع ان يفعل او ان يمتنع : عقل الانسان ليس تناجا ميكانيكيا ماديا محضا فهو ليس كالساعة المصنوعة ، يحرك الانسان ويوقفه آليا ، فالنار حارة دائما والضوء سرعته كذا وجذب الارض ستة اضعاف القمر والسنة ٣٦٥ يوما وربع اليوم وهكذا الى نهاية الموجودات الطبيعية كلها تعمل بحسب دساتير مفروغ منها فاذا حصلت شروطها تحركت بمقتضى دساتيرها . لكن الانسان ليس هذا الشيء (المفروغ منه) فقد يكون جائعا وعنده مآكل شهية ولكن لا يأكلها : قد يكون صائما او به مغص او ممنوعة عليه أو ينوي بيعها او ينتظر بها ضيفا او يخزنها .. او .. او .. الى عشرات الخيارات المماثلة . فاذا جاع ولم يجد قوتا سعى في توفيره او صنعه . رب قائل يقول ان البهيمة أيضا تتحرى عن القوت اذا جاعت .. وذلك كلام صحيح ولكنها لا تصوم منه ولا تصنعه ولا تبيعه ولا تنتظر فيه ضيفا . والبهيمة ايضا بقياسها الى البشر شيء (مفروغ منه) الى حد بعيد ولكن ليس بقدر المادة الميتة . كثيرا ما اجد في كتابة الكاتب

المادي الذي يرى من خلال رؤيته (المرآتية) ان الانسان نتاج مادي اعتيادي ، اجد ان دوره ايضا في معادلات ذلك الكاتب محسوب كدور المادة شيئا عاديا اضطراريا آليا • وعند جبهة عريضة من علماء النفس أعتبر نشاط البشر ورغبته وارادته وانتفاء ارادته كلها (ردود فعل) للحوافز لا تختلف عن حركة العربانة وانتقالها ووقوفها • هؤلاء العلماء ليس لهم اية نية في التقليل من حقوق البشرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية ولكنهم من زاوية نظر الحادهم يميلون الى رص خواص البشر في خواص المادة الجامدة سدا لأي مخرم قد تنفذ منه ارادة وحكمة غيبية قد تكون سلكت البشر في مسالك تخضع للقوانين والدساتير الخاصة به : يريدون منع وقوع ظل (الله) على أي شيء ••

نرجع الى ما كنا بصدده من موازنة دور الانسان بدور المادة في (الحدث) ونغوص فيها الى عمق اضافي :

اذا كان في امكان الرجل الذي وضعناه بالخيال وراء المجرة ان يحرك في دخيلته فكرا ضبابيا من نوع ما او يبغم بغاما طفوليا فالطبيعة لا تستطيع حتى ذلك بلا انسان : كل ما كان وراء حركتها وسكونها الآليين الناجمين من دساتيرها الازلية وخارج أطرها المحتومة مثل النشاط المتصل بالفكر والكلام والابداع وبقية مميزات البشر لا تملك منه الطبيعة حتى بالحجم الجرثومي •

حين جاء نالى من الطبيعة بصور الورد والعشب والشجر الى نسيج نظمه لم يكن قد استأذن الطبيعة ، والطبيعة نفسها لم تكن تعي شيئا من حيثيات وجود نفسها ومن ابداع نالى حتى نرد اليها جزء قليلا او كثيرا من صور ذلك النظم • الورد والعشب اذ تأكله السائمة والخيل والبغال هو نفسه اذ يضمنه نالى نظمه او يصوره الرسام في لوحته او يحصده بائع القش فلا يختلف في حال من حال من حيث فقدان الحيلة او ارادة الامتناع • وها هنا ايضا ملاحظة هامة لا يمكن اغفالها :

حين يقوم المفكر المادي بموازنة وتثمين دور العوامل المكونة للحدث لا يمر بوهمه ان يقارن فاعلية الخيل والبغال في عملية الاكل الى فاعلية العشب والزهر ولا مانع عنده ان يعتبر البهيمة مؤثرة لوضوح كونها هي الآكلة فتشبع من العشب وتستهلكه ، ولكن حين يكون طرف المعادلة هو الانسان بدلا من البهيمة فان فيضا من الشكوك والوساوس والشبهات يستيقظ في نفس المفكر المادي ضد فاعلية الانسان وحياد العشب وانعدام اعتباره فقد يقول : انت ايها الشاعر كيف تستطيع تجميل شعرك بصورة الزهر والعشب لولا انك تراهما وكذلك انت ايها الرسام .. وانت يا بايع القش كنت خليقا ان تموت جوعا لولا وجود العشب ، ثم ان حصاده ألجأك الى تدبير المنجل والحبل والحمار فما اشد خضوعك لدساتير حصاد العشب وبيعه ! هذا منطقه مع البشر ولكن يجوز ان يكون له منطق اخر مع الحمار والبغل فيقول : ان الطبيعة سلطت الحمار على العشب فيأكله ويدوسه ويتمرغ عليه فلا يملك اية قدرة على التمرد وعدم الرضا !

ما أشقى الانسان مع محبيه !!!

في رأيي ان الطبيعة لها دور محايد في عملية التطور والتقدم والحياة والنشاط عند الانسان بمعنى انها فيما عدا وجودها لا تضيف شيئا اخر من مثل (الانشغال والارادة والرغبة وعدمها ..) الى مجمل العملية المعقدة ، ووجودها ليس في يدها فهي (أمر واقع) بلا وعي او ارادة : العشب المسموم الذي يقتل آكله يستوي مع الفاكهة واللحم والحبوب ، وهن اسباب الحياة المريحة ، من حيث الدور الايجابي لاي منهما فكلها محايدات شأنهن شأن الصخرة التي اذا تزحزحت تحت قدم الانسان في اعالي الجبل ادت الى موته او شأن لوحة الخشب التي ينجو بها الغريق في لجة الماء . فان كلا من الصخرة المنقلعة واللوحة المنقذة هما في مقاييس الموت والحياة والتورط والخلاص محايدتان فلا الصخرة ارادت موت الانسان ولا اللوحة ارادت خلاصه ذلك

ان قوة الجذب التي سببت موت الشخص الواقف فوق الصخرة المتزحزحة في الجبل هي مثل صفة الخشب في عومه على سطح الماء كلاهما كان كما كان بلا ارادة أو رغبة •

هنا اذكر القارىء بشيء صغير ، فالتطور نوعان : احدهما بايولوجي يشمل الاحياء كلها بشجرة وحيوانه وانسانه•هذا التطور يمكن درجه في قائمة الاشياء الطبيعية لانه تبدل آلي واضطراري ودائمي يحدث بموجب الدساتير المادية التي تفعل فعلها من الازل بلا رغبة او منهج [الكلام هنا يناقش التطور من وجهة النظر المادية ولا مجال فيها لذكر اللاهوت] • والتطور الاخر هو التحول الاجتماعي المرتبط بالانسان وهو متميز عن التحول البايولوجي من كل وجه لان عاملا جديدا غير مسبوق في الوجود يصاحبه وهو مجموع صفات البشر وفي مقدمتها (العقل) فالتطور البايولوجي محصول (الحيوية) التي كانت الدنيا اللا محدودة قبلها عبارة عن امتداد متصل من الموت الذي لا أمكان فيه للتحول (الكيفي) فكانت ميدانا للدساتير الطبيعية العامة من فيزيائي وكيميائي وذرى و •• و •• الخ وكلها عديمة الرغبة والارادة والوعي والتوالد •• حتى ان غراما واحدا من المادة العضوية لم تكن تخلقت بعد في رحم الطبيعة • هذا التطور المسمى بالبايولوجي على اشد ما يكون من البطأ والتراخي • فلما نشأ الانسان حصل مجددا عامل طريف للتطور فكان جديدا من كل وجه ليس فقط في تقابله مع الطبيعة بل أيضا في مواجهة الاحياء من نبات وحيوان فلم يكن له مثيل في ماضي الزمان كله • أصبح طاقة الفكر والتصور والتذكر والموازنة وما يماثلها من الحس والادراك مقدمة لنوع من التطور لم يكن لوجوده امكان في الماضي • فالانسان من الجهة الواحدة شريك الطبيعة من حيث ان جسمه مادة وشريك للاحياء من الجهة الاخرى في ان جسمه وجسمها مخلوق من مادة عضوية • وواضح أن الاحياء الاخرى أيضا مشاركة للصفات الطبيعية من حيث ان جسمها مادة • بعد ذلك لا شريك للبشر في هذا الكون سواء في الطبيعة او بين الاحياء الاخرى • فكما

ان طاقة الحياة ميزت الاحياء كلها عن الطبيعة المادية الميتة كذلك ميزت طاقة العقل بفروعه المختلفة المكونة لمعنى (الانسانية) ميزت الانسان عن كل الوجود وسلكته في طريق لم يكن ليوجد قبل وجوده . كانت طاقة الحياة علة التطور البايولوجي فأصبحت طاقة العقل علة التطور الاجتماعي .

هذه الظواهر الثلاث ١ ــ الطبيعة ٢ ــ ذو الحياة ٣ ــ ذو العقل . وهن وان كن متداخلات ورفيقات في (الوجود) الا انهن يخلقن ثلاثة عوالم متمايزة ، كل منها بحسب خواصها المنوطة بها تنفصل تماما عن غيرها وليس للقارىء ان يستغرب هذا ولاسيما المؤمن بفكرة « التناقض » فكما ان الماء والنار يوجدان معا رغم التناقض بين طبيعتيهما كذلك لا غرابة في وجود ثلاثة عوالم مختلفة متجاورة دون ان يكون بعضها مشاركا للاخر في كل صفاته .

خلال قراآتي أنعم النظر في المفكر المادي المنحاز الى الطبقية فارى باستغراب شديد ان هوس فروق الطبقة يجعله يمنح للفرق بين العامل وصاحب العمل اعتبارا لا يمنحه للفرق بين دور الطبيعة ودور الانسان في التطور التأريخي . وحجب اعتباره هذا يظهر من جملة تصوراته وتحليلاته المادية لا من صراحته بان يحسب الانسان والطبيعة في مستوى واحد . من حيث تضخيم الفارق الطبقي يكفي ان بعض الدول الاشتراكية لا تمنح نجل غني قديم أو وجيه متقاعد ما تمنحه ابن العامل من حق الدخول في الكليات وان يكن حاز درجات عالية في الامتحان . ان هذا التمييز أغرق في الرجعية من تمايز الابيض عن الاسود ذلك ان التفريق بسبب اللون رغم مافيه من همجية يستند الى شيء بايولوجي ينتقل بالتوارث بحكم الطبيعة على حين ان (التملك) ليس من الخواص التي هي بمستوى الدم والجلد حتى تنتقل آليا من الوالدين الى الابناء حاملة اليهم خميرة الخيانة منهم على سبيل الهدية .. ومن الامثلة أيضا على عدم اعطاء الاعتبار للمميز الاعظم في الانسان وهو العقل الفارق بينه وبين الحيوان ان تكون اجرة عامل اعتيادي نصف امي مساوية لاجرة

الطبيب أو اكثر منها . والحق هو ان هذه التفرقة الطبقية لا تختلف في شيء عن التفرقة العنصرية وقد تكون أسوأ منها فانه من الممكن ان يوجد مجتمع كله من عرق واحد فتختفي فيه بالضرورة الفروق العرقية لكن الفروق الطبقية ستفعل فعلها في ذلك المجتمع فلابد من وجود غني قديم أفلس ودكتور ومهندس وعامل فيجري التعامل معهم على اساس التفرقة الطبقية . انا لست في هذا متحيزا ضد مراعاة العامل فالواجب هو نسيان كونه أميا ليتمتع بكامل حقوقه الانسانية ويحترم وجوده وحياته وعقيدته ورغباته ولكن لا يسوغ قطعا ان تكون مجاملة العامل بالاساءة الى الطبيب والمهندس او أن ينتقم من مهندس اليوم وطبيب اليوم بناء على ما كان من دلال الطبيب والمهندس قبل مئة سنة . لا ادري لماذا لا يطبق المبدأ نفسه على الشخص الذي يصبح خلفا للملك او القيصر او الظالم القديم فيؤخذ منه ثأر اولئك . اذكر من نماذج اعفاء الحاكم نفسه من حكم ينفذه في غيره شيئا من اواخر الأربعينات حين اصدر ستالين فتوى في صورة امر ديواني حول تساوي الافراد في درجة الذكاء ابتداء ولكن التفاوت الطبقي واختلاف التربية يحفر فروق الذكاء بين الافراد . ان الذي أقصده في ذكر هذه الفتوى الساذجة البائسة هو انه اذا كان ستالين يؤمن بصحة فتواه وجب عليه ان يسارع الى التنازل عن الرئاسة المتعبة التي اضطلع بها فقد كان قضى اوائل حياته فقيرا ولم يتسن له ان ينمي ذكاءه بالتربية الخاصة ، فلم لا يتحرى عن شخص محظوظ ومخلص ، حسب حكم فتواه ، فيتنازل له عن الريادة والقيادة ؟ لاشك ان جميع اولئك الذين يقولون اشياء كهذه بعيدة من الصواب لا ينوي احدهم تطبيقها على نفسه بل على العكس من ذلك يلقى ظلال الشك على قابليات الافراد بغية تدجينهم وشكمهم لمطلق ارادته . على اي حال مهما يكن شأن الانسان فانه مالم يظلم من قبل اصحاب السلطان فمن حقه ان ينال كامل حقوقه الانسانية بدأ بالاكل والشرب حتى مصارحة اصحاب السلطة بانه لم يعد يثق في اصلحيتهم فليعتكفوا في بيوتهم . والغريب في الامر ان المثقفين الذين يدعون الثورية وحب البشر

هم دائما وابدا ينقلبون عصيا في يد أولئك المنظرين القساة الذين يفرضون رغباتهم على عامة الناس • ان متسلطا مثل ستالين لم يترك شيئا لم يفعله ضد رغبة الفلاح الروسي في موضوع المزارع التعاونية والسياسات التي كانت تفرض على الارض الزراعية وبلغ في تعامله مع الفلاح مديات من القسوة والشراسة لم تكن تمر بوهم ثورة اكتوبر لسنة ١٩١٧ ، مع ذلك فان المثقف اليساري الكردي لم يزل يتحيز لتلك القساوة الخالية من الرحمة والانصاف ويتهم ملايين الفلاحين الروس بالاجرام حتى لا يعاب (رئيس الكهنوت الفلسفي) • هكذا تكون صداقة الشعب وعبادة البروليتاريا والا فلا !!!

المناقشة حول موضوع (الفكر والمادة) وكيفية تحويل العقيدة فيه الى موقف عملي تطوي بنا ميادين عديدة فمن الواضح ان الانسان بنتيجة تطبيق عقائد الفلاسفة يجد نفسه في مختلف الاحوال السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية سواء كان راضيا عنها ام لا ، لذلك لابد من الرجوع الى الاحوال المادية التي تقلبها عقيدة رجل مثل ستالين من الفلسفة الى دساتير المعيشة والدراسة والفن •• بل العبادة ايضا • ان عقائد اولئك المتفلسفين تقبض من البشر ثمنا ضخما لقاء اللقمة التي يزعمون أنهم يوفرونها لهم ، هذا الثمن يعطي اي انسان كان حق موازنة وتثمين تلك العقائد • اما الذين تسري عليهم الاحكام المستنبطة من عقائد المتسلطين فاما تشبعهم أو لا تشبعهم فلهم الف حق في الرضا بها أو رفضها حتى ان هذا الحق لا يجوز سلبه من الجماهير بفرض ان تلك الدساتير اشبعتهم جميعا فليس من المعقول ان ينصب أحد أو رهط ، حاضنة اطفال تسقيهم الحليب رغم ارادتهم • هذا من جهة حق اكثرية الناس ولكن من جهة المتسلط المبتدع للفلسفة فانه لا يتخلى عن دولاب عمله حتى ولو قتل الف واحد كل يوم بالجوع ويصر على موقفه باعتباره مثالا للصلاح ويلقي بالتهمة على الناس في خيبة بشارات عقيدته النيرة بالخير والبهجة ! وتصبح مئات الاقلام المأجورة او المسخرة شريكة الجلاد وهي تتظاهر بصداقة الشعوب • في مثل هذا الوضع نجد ان الفيلسوف المادي

الذي اقام فلسفته ابتداء على اساس ان الظرف المادي هو المعول عليه في قيام الحالة الاجتماعية ودساتيرها وعقائدها ، نجده قد تقهقر من فلسفته كلية بفرضه عقيدته ، صحيحة كانت ام خاطئة ، ارضية تقام عليها بل تزرع فيها كل حيثيات الاجتماع ولا عبرة بمن يقول ان عقيدته وان تكن خاطئة فقد تم استنباطها ابتداء من الواقع ، ذلك أن كون العقيدة خطأ يدلل مرة اخرى على تفاهة الواقع في نظر صاحب العقيدة من حيث انه حسب الصورة المشوهة المرتسمة في مرآة ذهنه بديلا وممثلا للواقع الصلب المنتصب ولا يلتفت الى عدم تحقق الوعود التي توقعها استبصاره المتفائل .

اذا كان المرء صريحا وصادقا مع نفسه وجب عليه ، دون ان يسبق منه اتخاذ قراراته المحددة دينا ، ان يمنح كل شيء اعتباره ويرصد له دوره في التطور والتقدم وتكون التجربة في ذلك هي الرائدة لانها وحدها تستطيع ان تكشف الصحة من خطأ العقائد والافكار والفلسفات والمناهج ، نستثنى من ذلك اسسا فكرية أولية وبديهية يمكن استخلاص النتيجة منها قبل تجربتها . وليس المقصود هنا من لفظ (التجربة) معناها النصي فلا داعي لاعادة التجربة في امور مجربة ويمكن اعتبار استنباط الرأي من الواقع الصادق نوعا من التجربة ويكسب مثل خطورتها والا اضطررنا الى ايقاف كل المناقشات بانتظار سلاسل التجاريب التي لا تنتهي .

اذا اتخذنا الواقع رائدا في اظهار دور الانسان وغيره ، بحيه وميته ، في احداث المجتمع وما يعتريه من تغير وتقدم بنية معرفة العامل المؤثر والمعمول المتأثر ، نملك نماذج كثيرة على غاية البساطة والوضوح والصدق وهي من النمط الذي ، اذا لم يستعمل فيه الصدق وفي تحديد دور سائر مكوناته ، يبدو كأنه يستخف بتقديراتنا ويحملنا على الحياء من انفسنا . وفي هذا ارجع الى نالى وظمه ومنه اعرج الى النماذج المذكورة :

اذا قلنا ان نالى في استعادته منظر الورد والعشب الى مضمون قصيدته

أصبح اسير الطبيعة ومنفعلا بها وجب ان نقول ان القصاب ايضا اسير الغنم والجاموس التي يذبحها طلبا للربح : نالى أسير العشب والدغل والقصاب أسير المعيز والغنم والصياد أسير جلد الثعلب والفخ الذي يصيده به • وتتابع الكلام فنقول ان مالك الارض اسير الفلاح الذي نقول انه مستعبد بالارض ، والفلاح اسير الثور والحبوب والحقل •• الدول المستعمرة اسيرات الشعوب المستعمرة والجلاد اسير المحكوم عليهم بالاعدام في ضمان راتبه من تعليقهم •• وهكذا نستطيع قلب الوجود كله وندور بمعانيه كأن نقول بوجوب اعطاء المكافأة للفرق الرياضية المهزومة التي لولا هزيمتها لما انتصرت الفرق الفائزة • والجيش المخذول له حق الاطراء فمن خذلانه جاء فوز الجيش الاخر ••

ما من مثال فيه طرف فاعل وطرف منفعل الا وينقلب عاليه سافله نتيجة تقديم دور المادة على دور الانسان •

نعلم ونقول انه لابد من وجود المادة حتى يفعل فيها البشر وبذلك نكون قد قلنا شيئا لا يساوي شروى نقير او ينعكس منه ضوء يكشف الظلام فلابد من افتراض وجود الطبيعة والبشر في كل كلام نقوله عند المقارنة حتى ولو لم نصرح به قولا ولهذا السبب البديهي نختزل (الوجود ــ الكينونة) من حساب الاشياء الموجودة ولا يحصل به خلل [شأنه شأن اختزال العدد المشترك في طرفي المعادلة] • علينا ان ندقق في نشاط البشر ونشاط الطبيعة في الامور التي تقع بعالم البشر • نأخذ للمثال بناء المسكن في تقديراتنا وندقق في النشاط المبذول في اقامة البنيان لنعلم الى من والى ماذا ترجع الفاعلية : هل الانسان يقيم البيت او ان البيت يقوم بالجص والحجر والاسمنت وما اليها ؟ حقا اننا نلهي انفسنا اذا لم نقل ان الانسان هو الباني لانه بالاضافة الى كونه بانيا فهو مهندس [معماري] أيضا ، ويبني لهدف معين من بين عشرات الاهداف كالسكن وانجاز الالتزام والايجار والمدرسة والعبادة •• والناس المنشغلون

ببنائه كل له هدف خاص فيه كأن يكون عاملا او معماريا أو مهندسا او صاحب البيت او ملتزما او مراقبا او حارسا .. الخ ومثال بناء البيت نموذج كل الانتاجات التي يشارك فيها الانسان وباستثنائه هو مما له وجود في الانتاج فلا شيء منه يحس بذاته وبدوره ولا هدف له في وجود وعدم وجود ما ينتج ، والفارق بين ما هو حي وما هو ميت من مستعملات البشر هو ان الكائن الحي قد يدفعه حب الحياة الى الهروب او الى الانقياد (طمعا في العلف) او بسبب الوفاء (حالة الكلب) .. ومن المادة الميتة ما هي صعبة التحصيل او التصنيع او الافادة ولكن ليس واحدة منها لها موقف (ايجابي) فلا هي تريد او لا تريد او تنعزل برغبتها . خذ من المستشفى الذي يعود فيه الى الحياة من هو نصف ميت الى الحبل الذي يشنقون به البشر وخذ من العشب الذي يشفي العليل الى السم الذي يقتل السليم فلا واحد منه يملك ذرة ارادة أو رغبة .

في هذه المقارنات التي هي في غاية البدائية والضحالة يجب ملاحظة أمر خطير في الذي يسمى المحيط المادي او البيئة المادية ذلك أن قسما كبيرا جدا منه هو مصنوع البشر نفسه ، كالمؤسسات السياسية والثقافية .. كالدين والاداب الاجتماعية .. كالبيوت والمعامل والمنتوجات الصناعية .. كالمعادن والمزروعات والحيوانات المدجنة .. كالتراث القومي التأريخي كله . ان حساب هذه الاشياء يختلف كثيرا عن حساب المحيط الطبيعي الخام من حيث تحديد دورهما في التطوير لان الذي هو صنع البشر يوضع في كفة ميزان البشر وان يكن ضارا . ان مناهضة قانون سنه الانسان وعرقلته لعملية التطوير ليست مثل صعوبة الوصول الى النفط في قعر البحر بما تقيمه من العسر والمشقة امام جهد الانسان .. وان استشهاد محب للسلم على يد انسان ظالم لا يشبه موته بصاعقة تنزل عليه او كومة حجارة تطمره . فالذي يصنعه البشر من البيئة المحيطة به في كلا نوعيه المادي (كالبيت والمعمل والملبس ..) والمعنوي (كالسياسة والعرف والصدق والكذب ..) ليس اي منهما محايدا فوراء مفردات كل منهما هدف ، خاص صالح او طالح افرزهما الى الوجود .

وكثير منه يخلق ابتداء بنية (المعاداة) أو (الدفاع عن الذات) وما الى ذلك ويحدث ان بعضه بعد تصنيعه واصطدامه مع مصنع مثله ينقلب الى سبب للنزاع • ومن نماذج ما قلنا ١ ـ السكن ، الملبس ، المأكل ، الحرث والزرع كله في سياق حفظ الحياة • ٢ ـ السلاح ، الجيش ، التدريب العسكري ، التحريض السياسي والعقائدي ، الدعايه •• يمكن ان تكون لصون الذات او المعداء • ٣ ـ الخلافات التي تحصل بسبب اختلاف العقيدة غالبها يحصل بعد اتصال العقائد واحتكاك بعضها ببعض لا ان عقيدة بحد ذاتها تحشى بها الادمغة ابتداء لمعاداة عقيدة اخرى •• فالاسلام لم يقصد في تشريع اضاحي العيد ان يكون بعد احقاب من الزمان سببا للنزاع بين المسلمين والهندوس • ان موضوع الاشياء المحيطة بالبشر مما هو مصنوعة يتطلب دراسة خاصة ويجب ان يبحث دور الاشياء الصالحة والاشياء الضارة ضمن علاقاتها الداخليه لا ان تختلط بالمحيط الطبيعي • فاذا حدث واقدمت على درس موضوع النفط احسبه ابتداء مادة ميتة لا تفعل فعلا ذاتيا ولا تملك ارادة وكذلك ما يتصل به من جودة ورداءة نوعيته ومن قرب وبعد منبعه ومن يسر وعسر استخراجه ، كله راجع الى حساب المادة الميتة (الطبيعة) فكله أمر واقع ليس الا • وبعد ذلك يبدأ الدور المستقل للانسان بكل حيثياته الصالحة والشريرة بدء من التكنيك وعبر التعاون في المعاهدات المنفوطة ونشاط المتمولين وتحفظ اصحاب النفط وما لا يعد ولا يحصى من الحيثيات الواضحة والخفية المتصلة به •• انا لا املك سعة من امري من هذه الزاوية الخاصة بتقويم دور الانسان والطبيعة لتفاصيل تحليل الجوانب الخيرة والفاسدة والقوية والضعيفة للبيئة في جزئها الذي هو من صنع البشر وهو عبارة عن جماع التأريخ والاجتماع ولا أن أخوض بعد ذلك في كيفية اتساق نسيج الاجتماع والتقدم والتقهقر والدور الحقيقي لظاهرة (التناقض) بخيره وشره واختفاء التناقض في حالات التعايش والتعاون •• و •• و •• حسب رؤيتي لها • ولا أجد فسحة كافية لانظر في التاريخ بعين المؤرخين والفلاسفة وبعين ماركس فاناقش آراءهم

فيه : انا لا اكاد اقدر ان ألقي من خلال كوة المقارنة بين حقيقة دور الانسان والطبيعة ضوء من عقيدتي على قصور الفكر الذي يبتز من فاعلية الانسان وخالقيته ليغني به فاعلية البيئة والمحيط على حين يتكون القسم الاعظم من البيئة نفسها مما صنع الانسان نفسه . في الغالب ، ان لم يكن في كل الحالات ، أجد الذين يضيفون التأريخ والاجتماع واحداثهما ، عن سبيل التحليل المادي التقليدي ، الى عامل البيئة والظرف المادي ويقلبون الانسان بذلك الى قطعة شطرنج ، اجدهم باستغراب شديد أنهم يضعون كل الذي صنعه البشر في الجانب الذي هو بحسب موازناتهم خارج وجود البشر فهم ينزعون من رصيده الفعال كل ما هو نابع منه . اقول من باب التوضيح انك قد تقرأ في تقديرات الماديين التقليديين كما قرأت انا مرارا وتكرارا شيئ كهذا : « كثرت المدارس وانفتحت ابواب التجارة مع البلدان المتقدمة ، وذاعت اخبار الحركات الاجتماعية والمطالبة بالحرية والتعليم ، وانتشرت الجرائد والكتب وسائر صنوف المطبوعات في الحواري والاسواق وارتبطت اكناف الدنيا ببعضها عن سبيل وسائل النقل والاتصال ... في هذا الظرف تصدى فلان افندي ، كنموذج لمحصول عصره الى المطالبة بالحقوق الاجتماعية .. » . هذا النمط من التعليل يصادر فاعلية (فلان افندي) ولا يتوقف عند سلب فاعليته لحساب جهة اخرى لانه لا يقيم وزنا للحقيقة الصارخة المتمثلة في ان جميع العوامل المذكورة في الظرف المشار اليه بلا استثناء هي مخلوقات بيد البشر ولم تنزل على الارض من المريخ .. نعم ربما استعملت انا أيضا اسلوبا كهذا في كتابتي من باب اختصار المقال فقد يتعذر في احوال كثيرة فرز ما هو مصنوع بشري عما هو ظرف طبيعي ، ولكني اتذكر حقيقة الحال دواما ولا ينزلق فكري الى ضبابية وتعقدات التحليل الجائر . فاذا آمن الكتاب واصحاب الرأي عموما واقنعوا الناس ان يؤمنوا بأن العامل الايجابي الوحيد في التطور الاجتماعي وفي التأريخ هو الانسان لا يبقى داع لتكرار هذه الحقيقة دواما في الكلام وفي الكتابة ، مثله مثل قولنا ان الشمس

طلعت وان الكوكب غاب لا نحتاج فيه الى اضافة عبارة (بسبب دوران الارض حول نفسها) لان هذه الحقيقة نزلت عندنا منزل البديهية ومحسوبة ضمنا .

ان صاحب التفكير المادي الذي يميل ، من اجل تمتين اساس الفلسفة المادية ، ان يقلل من الدور المستقل والخطير للانسان خشية ان ترجح (الذاتية) على المادية هو ، ويا للغرابة ، يجد نفسه في وضع معكوس من حيث ان ذاته هو تصبح قانونا ودستورا حتى ان جميع المصنوعات المادية تبنى على اوهام تلك الذات . فالمفكر المادي بعد ان يتأكد ، حسب رأيه ، من توصله الى اكتشاف القوانين العلمية المادية في الاجتماع يبدأ في صياغة المشاريع لتمشية مصالح المجموع ويستنبط تلك المشاريع كلها من قناعته وعقيدته ونعلم انه لا يسمح لاحد أن يتصدى لتصحيح اخطائه ولا يلتفت الى التجاريب التي تكشف خلل مشروعاته ، والغريب في الامر ان شعوب البلدان المحكومة بالفلسفة المادية تكون أطوع من شعوب البلاد الاخرى الى حكم تلك الآراء والمشاريع الباطلة النابعة من (ذوات) حكامها فهي في الحقيقة محكومة بـ (الذات) اكثر مما تكون محكومة بالمادة فلا مكان لاية مادة أو مصلحة في تلك الشعوب ما لم تكن ذات حاكمها قد أقرتها . لكن الحكاية لا تنتهي عند هذا الحد :

الكتاب والفلاسفة اذ يشرعون في ذكر الفكر الذاتي والموضوعي يفلتون حقيقة في منتهى الخطورة والعمق وهي من الوضوح بحيث انها لشدة وضوحها لا تجلب النظر : ان تفريق اسلوب التفكير والاعتقاد الى ذاتي وموضوعي ينتهي في الحصيلة الختامية الى افتقاده لاي أعتبار أو قيمة لان مدعي الموضوعية مضطر بعد التجربة الى الايمان بالرأي الذي اختمر في ذاته ومخه ودخيلته وترأى له انه صحيح على حين يجوز ان يكون رأيه اشد الاراء بعدا عن الصواب فالتجربة ونتائجها لا تنقلب بذاتها وبشكل آلي الى عقيدة من ينشغل بالتجربة فمن الممكن ان ينتهي صاحب التجاريب المتنوعة الى الايمان

بصواب اشدها خطأ ، كما يجـوز ان يتوافق تحليل الرجل (الذاتي) مـع نتائج أصح التجاريب • نعم ان من يتبع الاسلوب الموضوعي يكن اميل الى الاخذ بالمعطيات العلمية ولكن ليس حتما ان يصيب الهدف دائما غير انه يؤمن دائما بصوابه • ولا داعي لأؤكد ما هو واضح بذاته من ان الموضوعي الذي يخيب في التوصل الى الحقيقة لا يمكن ان تكون قناعته (موضوعية) مهما تكن مستندة الى التجربة : فها هنا اسلوب موضوعي أخرج فكرا ذاتيا وهو خاطىء • والشخص الموضوعي الذي يصيب الهدف هو أيضا يؤمن بصواب الموضوع عن طريق الذات فقد يكون شخص موضوعي اخر يختلف عنه في قناعته حول الموضوع نفسه • ليس في الامكان ان يخرج الانسان من قوقع الذاتية • فاذا اردت ان تجد رأيا موضوعيا بعيدا عن الـذات فهناك العقل الالكتروني بلوحاته ومفاتيحه ورموزه فهو لا يملك ذاتا تختلف بالموضوع واذا زودته بالمعلومات الصحيحة اعطاك نتيجة صحيحة لاشك فيها الا في الاندر الذي هو في معنى العدم • والمقاييس الاخرى جميعا مثل العقل الالكتروني كل منها موضوعي بالتمام في ميدانه ، وما لم يكن حدث خطأ في صنعه فاجاباته صحيحة كالترومتر والبارومتر والسيسموغراف والرادار •••

الانسان في كل حال وعلى سبيل الحتم والضرورة مخلوق ذاتي ، وصفته هذه التي هي حصيلة عقله تبعد به كثيرا عن الاحياء الاخـرى التي تملـك الغريزة فقط تتحرك على هداها الا ماندر من بعض مظاهر تبدو على احادها في نطاق محدود من التصرف الذاتي كالوفاء الملحوظ في الكلب او ما يرى من ان بعضها يثأر لظلم وقع عليه ولكن ذلك فوق كونه قليل العدد فهو لا ينتهي الى اية نتيجة ولا يغير شيئا من احوال الكائن الحي [موضوع هذه الحيوانات واسع حتى ان من العلماء من يتكلم في سايكولوجية البهائم ولكن لا متسع لبحثه هنا] •

الانسان منذ يوم مولده مخلوق ذاتي وعلى امتداد عمـره يتغير نوع

اهتمامه • ففي اي عمر كان نجده يهتم باشياء هي موضع اعتبار ذلك العمر • ليس هذا فقط : فالشعوب على حسب درجة حضارتها تنشغل بالمعيشة والتفاريح وما يسر وما لا يسر • موضوعات الطبيعة هي هي منذ القديم ولكن تعامل الانسان معها تختلف بتطور ذاته ويتقدم • فكل مافي الطبيعة من مادة وموضوع لا يستثير البشر الى العمل ما لم يفهمها واذا فهمها فلا يتصدى لها اذا لم يؤمن بجدواها ، واذا آمن بها لا يحاول تطويعها مالم تسعفه قدراته أو اذا منعه مانع أو نهته عقيدة ، وخلاصة القول انك مهما تبالغ في تدقيق نشاط الانسان تجد بوضوح اكثر مدى ذاتيته وان موضوعيته ايضا تصبح حافزا في بوتقة ذاته •

لابد هنا من ملاحظة ان ذات الانسان ليست دائما مختارة فيما تفعل او تترك • في احوال كثيرة تضيع حرية الاختيار كما هو في حالة التهديد او شراء الضمائر أو كبت المشاعر بالدجل • في ظروف كهذه تذبل ذات الانسان ذبولا فادحا ولكنها لا تفنى بالمرة • والذات نفسها تقرر الخضوع للتهديد او بيع الضمير ومن الناس من ينتصر على التهديد بذاته القوية وقد يقتل في سبيل ذلك ، ولا يبدل عقيدته باموال الدنيا وقد يحدث ان يكتشف خطأ في عقيدته ولكن يركبه الحياء فيتمسك بها • في هذه الاحوال تصل الذات الى الحد الاقصى في السيطرة على الموضوع • والملحوظ في هذا المجال ان الذين يدعون الموضوعية والالتزام بالتفكير المادي هم في الغالب اشد الناس تمسكا بالعقيدة التي يبرهن الزمن على بطلانها •

من بين اصحاب الرأي المادي يوجد اثنان من قادتهم العظام يتصفون بمقدار فوق المألوف من الرضا عن الذات والثقة بالنفس • ومن هذا المنطلق أيضا صار كلاهما أكبر رائدين في الفكر المادي لان كلامهما لا يحمل ذرة من التشكك ولا يترك اي أمل لوجود احتمال اخر صحيح فما يقوله اي منهما يبدو على صورة من القطعية والانغلاق تجعل أية عقيدة اخرى في معيار ذينك

الرائدين جوفاء وكاذبة وهاذية واسطورية • اول هذين الرائدين هو ماركس وثانيهما هو لينين • كان ماركس بالاضافة الى المعارف الهائلة التي جمعها في ذهنه ، يستعمل مادة اخرى هي ذاته ، ذاته التي كانت تنزع الى التصدي للعالم كله الذي هو خارج قناعته فيتحداه • قرأت لبرنارد شو يصف ماركس فيقول عنه (هو اول انسان اعتلى مرتفعا واستشرف الوجود بلا خوف) • ولكني اعدل كلامه بأضافة كلمتين ليصبح (مرتفعا من ذاته) وأقصد من الارتفاع الايمان بالذات وروح التحدي واقتحام رأي الغير وما أشبه والا فقد عاش اخرون من البشر وقفوا على مصاطب من العلم والمعرفة اعلى واعرض من مصطبة ماركس ولكن لم تكن في ذواتهم صفة الريادة والقيادة والايمان بالذات وروح التحدي والاقتحام ، والناس ينساقون وراء بريق الذات وبريق الكلمات وبريق الوعود وليس بريق الصدق والصواب الذي قد يكون من اشد الاشياء كراهية الى النفوس • ينبش ماركس في العقيدة الصلبة المنتصبة على القاعدة المتينة والجذر الراسخ فيزعزعها ويقتلعها ويشتل مكانها واحدة من مخلوقاته وان يكن قد وضع خاطئا مكان صحيح • ومن ابرز الامثلة على تحديه المعلن هو هجومه على القانون الاقتصادي المشهور والبديهي المسمى (العرض والطلب) الذي هو من الوضوح بمكان حرارة الصيف وبرودة الشتاء فجاء ماركس وحط مكانه قانونا بديلا حين قال ان ما يحدد السعر هو العمل الاجتماعي المصروف في السلعة فبلغ فيه من الذاتية حدا لو صدقناه لنزل سعر الكمأة الى بضعة فلوس •• وجعلنا سعر التراب المحفور مع خام الماس في مستوى سعر الماس نفسه لان الكمأة تنبت من ذات نفسها ولا تكلف الا مصاريف نقلها ولان التراب المذكور كلف من التعب ما كلفه الماس • انه مهما حدث تأول لتخطئة العرض والطلب وتصويب ما ذهب اليه ماركس فلا يجاوز كونه تأولا ذكيا قد يكفي لقتل بذور الشك في القلوب (وقد لا يكفي) • ولو استطاع ماركس الخلاص من قبضة الايمان الزائد بالذات لما اصاب الفكر

المادي والماركسية اي ضرر ولاصبح تلامذته حماة مبدأ العـرض والطلب واعتبروه من ادلة علمانية المادية الماركسية .

اما لينين فلانه كان في حال ألصق بالنشاط الثوري من حال ماركس فقد ظهرت عليه (الذاتية) بصورة أوضح . ان لينين في كل كتاباته خط متصل مستقيم من الايمان بالذات وفضح الاخرين ويستعمل في ذلك عبارات غارقة في الذاتية تستدعي من القراء اعادتها المرة والمرتين عسى ان يفهموها . حقا ان لينين يعتبر عامة خصومه دون مرتبة البهائم ولا يلجأ في ذلك الى شيء مـن حبس اللسان او تأخير اللفظ او الاقتصـاد فيه فكأنه يتكلـم في المواعين والابسطة وسماور الشاي . وهنا استعير نموذجا من كتاباته الواضحة المدلول لنعلم بأية نظرة تحقير يرنو الى اولئك الذين يعتبرهم خونة البروليتاريا . ففي الصفحة ١١٥ من كتاب (لينين : عن الامبريالية والامبرياليين ـ دار التقدم ، موسكو ١٩٧١) تقرأ هذا البركان :

« ولكن جميع هؤلاء الكاوتسكيين وهيلفردينغ والاوكيين ، ومارتوف وشركاه هم ، في الواقع ، متفائلون ... من الانتهازية . وكل المسألة هنا .

« ان البروليتاريا هـي نتاج مـن الرأسمالية ، الرأسمالية العالمية ، لا الاوروبية وحسب ، ولا الامبريالية وحسـب ، ويقينـا ان «البروليتاريا» «ستكون» واحدة على النطاق العالمي ، بعد خمسين سنة او قبل خمسين سنة ـ تلك نقطة تفصيلية في هذا النطاق ـ وبها ستنتصر الاشتراكية ـ الديمقراطية الثورية « بصورة لا مرد لها » . ولكن ليس المقصود ذلك ايها الكاوتسكيون، انما المقصود انكم الان في البلدان الامبريالية الاوروبية تزحفون على بطونكم امام الانتهازيين الذين هم غرباء عن البروليتاريا بوصفها طبقة . والذين هم خدم البرجوازية وعملاؤها ، وناقلو نفوذها وتأثيرها . واذا لم تتحرر الحركة العاملة منهم ظلت حركـة عاملـة برجوازية . ان دعايتكم « للوحدة » مع الانتهازيين ، مع ليغن ودافيد ، مع بليخانوف أو تشخنكيلي ، وبوتريسوف ،

وغيرهم وأضرابهم ، انما تعني ، موضوعيا ، الدفاع عن استعباد البرجوازية الامبريالية للعمال بواسطة خير عملائها في صفوف الحركة العاملة ، ان انتصار الاشتراكية الديمقراطية الثورية على النطاق العالمي أمر محتم اطلاقا ولكنه سيجري وسيجري ، يقوم وسيقوم ضدكم فقط وسيكون انتصارا عليكم » • [الكتابة من سنة ١٩١٦]

ان قسما من هذه الحدة والشدة من مقتضى الموضوع ، وقسم منها هو مقتضى ذات لينين العارمة العصماء • وما من كتابة قرأتها له الا كانت من هذا النمط • انا لا أتكلم هنا فيما اذا كان اختلاط الذات بالموضوع صالحا ام سيئا فالذي أقصده هو توضيح الحقيقة البينة من كون آراء الناس من جبهة المادية « ذاتية » محضة • اذا دققت النظر وجدت رجلا مثل لينين الذي له الموقف المتطرف في الاجتماع هو من يجرأ في منتهى الارتياح ان يفضح جميع اولئك الناس في كل تلك المواقف [عبر الكتاب كله وكثير غيره من الكتب المماثلة] يفضحهم من كل وجه • فانظر الى نهاية تلك الكلمات تجده فيها وكأنه يبتعد من الهدف الاساسي للبروليتاريا الذي هو هزيمة الامبريالية ويلتزم هزيمة اولئك الذين ليسوا ثوريين اشتراكيين اقحاحا : [سيجري وسيجري ، يقوم وسيقوم ضدكم فقط ــ كلمة «فقط» هذه تشطب من الحساب كل قوى الامبريالية والبرجوازية • لا أظن ان الذاتية يمكن ان تتجاوز هذا المدى •] •

عندي ، وعند الواقع ايضا ، تكمن القوة الهائلة للماركسية واللينينية في ذاتي الرجلين وفي الناحية « الروحانية » في فلسفتيهما وليس في الذي يسمونه المادية والعلمانية ، وهذا ما أخر انبعاث صوت المعارضة للاحزاب الشيوعية الاوروبية خارج روسيا عشرات السنين وهو نفسه الذي جعل المبتدىء في الشيوعية في مكان ككردستان العراق تأخذه حالة « الجذبة » الصوفية اكثر مما تأخذ الصوفي نفسه ، الى فلسفة لم يفهم منها بعد أي

شيء • لا اشك في ان شيوعيا من طرازه ، حين يقرأ كلامي هذا تنتابه حالة من الذهول عن الذات مما ينتاب الصوفي حين توجه الى شيخ طريقته كلمة جارحة مع ان ما قلته ليس شيئا يسوغ ان يغضب اي انسان موضوعي فهو لا يعادل جزء من مئة جزء مما يلفظه الشيوعي عن الدنيا كلها من طرف لسانه •

ان الذين لا يتعمقون كثيرا في المادية هم في العادة اكثر موضوعية من اولئك الماديين التقليديين الذين لا يمنحون غير عقيدتهم اي اعتبار ، بل انهم ، لولا الاضطرار ، يعتبرون كل عقيدة غير شيوعية باطلة ومتخلفة ومستغلة فقد قيل وكتب في اوليات فلسفتهم ان اية عقيدة او حركة غير ماركسية يجب ان تختفي بالتدريج ويعتبرون ذلك من احكام التأريخ • واللاموضوعية في عقيدتهم هذه تنجم من انه لا الشيوعية هي تلك الصالحة الصادقة التي يزعمونها ولا العقائد الاخرى كلها هي تلك الفاسدة الخاطئة التي اعتبروها علامة فارقة لها • اما موضوعية العقائد الاخرى التي لا تغوص كثيرا في المادية فهي تنبع من أنها لا تحتكر لنفسها ادعاء الصدق والصلاح ولم تجعل من الخطأ والفساد سمة وشعار غيرها من العقائد ، لهذا يكون باب الموضوعية مسدودا بوجه العقيدة المادية فلا تستطيع ترك المجال لتعديل وتصحيح تفرضهما التجربة من الضرورات فقد ألزمت نفسها بالدوام على قناعاتها ولو انكشف في كل يوم عشرات من اخطائها • اما الجهة الفكرية المقابلة لها فانها لم تدع قيامها على احتمال (الصحة والصلاح) بهذه الحدية وضيق المعيار ، فتنظر الى الدنيا من مراح فسيح وتستبقي احتمال كونها مخطئة وكون غيرها مصيبة • ومن هنا ينكشف كيف ان الفلسفة المادية تستطيع في ظل سلطان غيرها أن تزدهر وتصل الى الحكم أيضا فلو كانت النظريات الاخرى تفعل ما تفعله المادية في اعتبار الدنيا خارج وجودها خائنة ، ما كانت تسمح للمادية ان تتنفس فالمادية منذ اليوم الاول لوصولها الى الحكم تبدأ في ازالة العقائد الاخرى كافة • فحين يقال (حتمية انتصار الفكرة المادية) فان منبع قوتها من هذا السبب لا لان

الفلسفة المادية هي الوليد الشرعي المدلل للتقدم الاجتماعي • في البلاد التي تسلم فيها جبهة الشيوعية مقاليد الحكم لا تعتمد في سلامتها على مبدأ (حتمية التأريخ والحل الاشتراكي) كي يقوم المبدأ هذا بدور الحارس ، بل على عكس ذلك ، تبدأ في تسليح نفسها وفرض عقيدتها واضعاف غيرها على نحو يوحي بأن حكم التأريخ صدر ضدها هي • ليس من اعتبار مطلقا لما يقدمه الشيوعي من تبرير تصرفه المذكور في ازالة غيره بأنه دفاع عن النفس ضد أعدائها فما من احد يلومهم او يقطع الطريق عليهم في الاستعانة بأية وسيلة ممكنة ضد الاجنبي حتى ولو توسلوا في ذلك بالادعية والطلاسم ولكن اللوم يكتسحهم في توهينهم للشعب الذي يحكمونه وتحجيم ارادته حتى لا يستطيع بعد مئة سنة ان ينبس بنأمة اعتراض • اذا كان صحيحا بنظرهم ان التطور التأريخي المحتوم يقود البشرية نحو الشيوعية فليسمحوا لهذه الحتمية ان تنشر ظلالها من ذات نفسها وبلا تقييد وتحبيس على شعوبهم كما تفعل دول ضعيفة مثل الدانمارك وسويسرة في تركها الامور لرغبات الناس • أعلم بالبداهة ان الاتجاه العام للتطور هو تقليل او ازالة تفاوت مستوى المعيشة للافراد والطبقات وان ذلك اذا ترك تطبيقه للتطور الاعتيادي يستغرق وقتا ، اعلم هذا وأؤمن بأن المعيشة لا تكون ميسورة مستقبلا بدون تدابير حاسمة ولكن لا المساواة والعدالة الاجتماعية مشروطة بدكتاتورية البروليتاريا [ولم تكن البروليتاريا في البلاد الشيوعية الا رعية] ولا هو صحيح ان اية عقيدة تتكلم في العدالة والمساواة لا تكون صادقة الا اذا كانت ماركسية • ان الذي تلقاه الشيوعيون ارثا من الماركسية واللينينية قد ترشح من ذات هذين الثوريين باكثر مما يكون قد انساب اليا من جدول الحتمية التأريخية عبر دماغ هذين الانسانين فصار لهم مشعلا • لاشك في ان الاراء التي يدعي ماركس وانجلز انها حصيلة الاحداث والاجتماع والاقتصاد والتأريخ قد خالطت ذاتيهما وصيرت قسما كبيرا من عقيدتهما الشخصية مضمون النظرية • واذ يقولون انه لولا ماركس لصاغ النظرية شخص غيره فانهم يطمرون حقيقة في سعة

السماء ووضوحها : صحيح انه كان سيوجد ، بل كان موجودا ، من يجعل المادية التأريخية ودور البروليتاريا قوام نظرية جديدة ولكن كان من الممكن ان تكون على بعد شديد من الماركسية التي نعرفها لان الخلاف بين فلسفة واخرى يقوم في منتهى السهولة وبمقدار جزئي من الانفصال فلو أن الشخص الذي كان يقوم مقام ماركس في ابتداع الجدلية قد حذف من نظريته مقدارا يقطعها عن فكرة دكتاتورية البروليتاريا فقط ، كما فعل الحزب الشيوعي الفرنسي اخيرا ، لتغيرت الحركة الشيوعية جملة وتفصيلا : كان من الممكن ان يحتل بليخانوف مكان لينين .. الا يظهر ستالين . ان تكون جبهة الشيوعيين والاشتراكيين اكثر عالمية ومتانة ودواما .. الا يصل النازيون الى الحكم [باتفاق الشيوعيين والاشتراكيين الالمان] . عشرات انتكاسات النظرية التي لزقت الدول الشيوعية بسبب يساريتها المتطرفة كانت تصبح غير حتمية [هم لا يعترفون بها في الكلام والكتابة ولكنها تقتحم حتى العيون النائمة] . لاشك ان جميع اللا واقعية الموجودة في النظرية الشيوعية هي من عمل ذوات الاشخاص الذين اوجدوها وهي كلها نقيض المادية والموضوعية التي يزعم انها محتوى النظرية . كثيرا ما رأينا في تجاربنا اليومية انه حين تقف جبهة غير شيوعية موقف المضحي المخلص الصادق تفاجئهم هجمة شيوعية باليد واللسان والقلم والشعار ربما كانت اعلى صوتا واكثر صراحة واشد تجريحا من هجمة الحكومة الرجعية التي قام ذلك الموقف ضدها . في حالة كهذه حيث لا ذنب فيها لصاحب الموقف فأما أن نقول ان الجهة الشيوعية بسبب سوئها وخطئها قامت بالهجوم واما أنها من زاوية نظر ذاتية بعيدة من الموضوعية تظن بغيرها ظن السوء فاذا لم نقل هذا وذاك فاحسن احتمال لتفسير سلوكها هو القول بان مرضا نفسيا يحملها على هذا التصرف وهو أحسن الاحتمالات لانه اذا لم يكن سبب الهجوم سوء العقيدة وخطأها أو النظرة الذاتية او المرض النفسي يبقى تفسير واحد فقط هو تنفيذ أمر الاجنبي . والجهة او الشخص الذي يتعرض للهجوم غير المبرر هو أحسن دليل على انتفاء الموضوعية في موقف

المهاجم وباتتفائها يبقى السبب الذاتي وحده يفسر الهجوم ، والواقع هو ان المرض النفسي والامتثال للاجنبي يرجعان ايضا الى العامل الذاتي وغاية الفرق بين المرض والمجاملة ان هذه تكون بعين مفتوحة على حين لا يحس المريض النفسي بعلته .

ربما قيل انه في الاحوال التي يتوافق فيها الموازنات الداخلية مع الوضع القائم خارج وجود الانسان لا يبقى مجال لحسبان الدور المستقل للذات ولكن هذا التصور لا يصيب الا قشرة رقيقة من سطح الواقع لان الذي يحـرك الانسان هو تصميم ذاته سواء توافقت ام تخالفت مع الواقـع : فاذا كنت ظمآنا ورأيت على البعد بريقا ظننته ماء ذهبت اليه حسب تصميم ذاتي وبهدف شرب الماء ويجوز بعد ذلك ان يكون البريق ماء او شيئا اخر كالزجاج مثلا . الحارس في ليلة ظلماء يرى شبحا فيطلق النار عليه فيجوز ان يكون الشبح لصا او شخصا خاليا من النية السيئة أو صديقا للحارس أو واحدة من البهيمة او تغويش العينين . وواضح هو انه على قدر قرب التصميم الذاتي من حقيقة الواقع يكون اكثر موضوعية ولكـن (ارادة الذات) لا تبطل ابدا بسبب توافقها مع الواقع لان الارادة تصدر من الذات لا من خارج وجودها . كثيرا ما يقال ان المصلحة المادية تحرك الناس كبندول الساعة جيئة وذهوبا ويحسب ذلك من البديهية ولكن فيه تغريرا كبيرا دون أن يكون أحد أراده . فحتى تكون المقولة صادقة لا تغرير فيها ينبغي القول ان الانسان يفعل ما يرى فيه مصلحة وقد تكون مادية او معنوية (حج ، صلاة ، جهاد ، تبرع ، تطوع ..) أو مصلحة موهومة وكاذبة حتى ان الانسان قد يجد المصلحة او يتوهمها فيما هو اشد الاخطاء اهلاكا في كل حياته ، وقد يحدث ان الشخص يدرك ما في شيء ما من التعارض مع المصلحة ولكن الزخم الشديد من شعور آخر غيـر مصلحي يجعله يتناسى الضرر والمنفعة والكيف والكم لذلك الشيء فيفعله بازدهاء وبلا تردد . هذه الاحوال والوف الالوف من الاحوال المماثلة في مهوى انظارنا وكلها تثبت ان تصرف الانسـان ليـس كالترمومتر والعقـل

الالكتروني ليمتثل اليا لحكم الطبيعة والمحيط ولا هو كالاحياء الاخرى التي يتحرك بالغرائز الساذجة : في الانسان « ذات » يمر عبرها الشبح والصورة والمعنى والقيمة والمصلحة والخسارة للعالم الموجود خـارج وجوده فيثمن ويقاس على نوع من الانواع ويصدر بشأنه القرار • فاذا قتلت في الانسان هذه الذات او عطلتها او خدعتها تنحدر انسانيته الى مستوى الانسان المنوم مغناطيسيا فيفقد ارادته وتقع شكيمة ذاته في يد انسان اخر : المجنون تسقط حقوقه الحرة لانه لا يعود يملك ذاتا عاقلة تستطيع ممارستها ، والطفل تحتجب منه كل الحقوق المتوقفة على الذات الكاملة حتى يبلغ مرتبة الانسان السوي• المحتالون في هذا العالم سواء في ميدان السياسة او الاقتصاد او الدين او أي ميدان آخر يبلغون اهدافهم عن طريق تعطيل وشل ذوات اولئك الذين يحتالون عليهم باستعمال انواع وسائل التعطيل بدء بخداع النظر والوعود الكاذبة حتى الحبس والارهاب والقتل فاذا تعطلت ذواتهم فعجزوا او نسوا ان يرفضوا او يقاوموا آلت ثرواتهم الى الشخص او الجهة التي سخرت ذواتهم • انظـر الى الدجال من متشيخى الطرق الصوفية كيف يستولي على قلب الدرويش وضميره فيروح الدرويش بعد ذلك يدور مثل الفرارة في الاكناف حتى يحوز لقمةفيلقيها في حلقوم شيخه • ورأيت في السياسة كمـا رأيت انت كيف ان الشاب المبتدىء المفتقر الى النجربة يجازف بروحه حتى حدود الموت مـن أجل رئيسه كما يفعل الصوفي من أجل شيخ الطريقة • علـى اي حال فانه واضح مثل البديهية انك اذا سرقت ضمير انسان اخـر وعقله آل اليك كل ما يملكه • وحتى نكون منتبهين الى كل حيثيات هذه التقديرات ينبغي أن نعلم انه بسبب انشغال قرصان الفكر والمحتال وحرامي المحافظ بالمصلحـة المادية لا يفقد احتيالهم وتعاملهم صفته الذاتية بل على العكس من دلك يزداد فيها عمقا فالشخص الذي تم خدعه يخسر المادة وواضح انه من طريق تعمية ذاته يستسيغ خسارة المال •

ارى من المناسب هنا ان استعيد قولا سبق لي بيانه في غير هذه الكتابة

الى دائرة هذه التحليلات والموازنات وذلك بهدف زيادة اضاءة الموضوع • والى حد ما ، اضاءة ذلك الكلام نفسه ••

في الصفحة ٣٢ من الجزء الثالث لكتاب (حاجى قادرى كويى) تقرأ ما يلي ادناه في مناقشة بعض الاراء المادية الضيقة المعيار :

« جميع الاراء والعقائد التي تظـــن ان تحليل التأريخ باسلوب مادي عبارة عن العثور على علائق مادية صلبة لها حجم ووزن ، فانها تتملص مـــن واقع اجتماعي أضخم وأوسع وأعمق وأعقد وأحفل باسباب التعثر جدا جدا من الواقع الساذج الذي يتم تحليله بالمعادلات الرياضية ومعايير مصالح السوق وظاهر حسابات البيع والشراء والنفع والضرر للتعامل اليومي : فكما ان الانسان ليس هو ٦٠ كيلو ماء و ١٠ كيلوات ملح وبضعة كيلوات من الحديد والفحم وما اليهما لا يجاوز ثمنها جميعا دينارين من عملة هذه الايام كذلك المجتمع ليس عبارة عن بضعة دساتير ساذجة خالية من العمق منتصبة على برزخ المادة• فالبشر والاجتماع بسبب من الخصائص العديمة المثال التي تفصله عن الوجود كله بأحيائه وأمواته يأتي على نحو في غاية التشابك والغرابة والتعقيد فيغور في اعماق ذاته بأكثر مما يغور في المادة • ان التجربة اليومية لعشرات ومئات والوف السنين تثبت ان البشر ، ومعه الاجتماع ، يرخي جذور ارتباطه بالوجود عبر قشرة سطحية رقيقة من المادة الى اعماق دخيلته ؛ وكما أن العشب يأخذ من الارض والهواء والماء ونور الشمس مادة ميتة ويحيلها الى مادة عضوية حية كذلك البشر يأخذ من المحيط المادي ومصالح المعيشة واسباب بقاء النوع وظواهر الطبيعة والوف الخمائر المحركة لدولاب الحياة والوجود والاستمرار مئونة خاما وبدائية فيسلمها الى الطاقات الموروثة التي لا تحصى من الحس والادراك والوعي والحنان والشفقة والغضب والتخزي والخوف والشجاعة والجهل والسهو والفكر الملتوي والالم والضعف والفرحة والحزن والصحة والمرض وميل الجنس والصراع والانبهار والوف الخواص الاخرى الظاهرة

والخفية للبشر فيقيم منها كيانا ماديا ـ معنويا ـ عاطفيا ـ عقليا ـ منطقيا ـ اسطوريا ـ طماعا ـ مضحيا من الوان متعددة وذا ألف لحن والوف الابواب والعطفات والازقة التي تتفرع منها وتتداخل درابين لا تحصى كل منها يشاغل اجيالا من العلماء والخبراء والمحللين والمحققين والباحثين فيتشاجرون ويتقاربون ويتباعدون ويتهادنون حتى ينتهوا ـ أو لا ينتهوا ـ في ختام هذه الحرب والسلام للوقوف على شيء قد يكون مطلق التناقض مع الحقيقة وقد يكون في كبد الحقيقة . » .

هذا الكلام المنقول من كتاب (حاجى قادر ..) شأنه شأن الاراء المشروحة هنا يضع الانسان في مكانه الحقيقي ويكله الى العوامل التي هي من مضمون ذاته بالارث والعوامل الطبيعية التي تصبح حوافز لذاته او العوامل التي يصبحن في اعقاب نشوء الاجتماع بجوانبه الصالحة والفاسدة حوافز ومؤثرات ومعطلات . لو ان عقدة الكبرياء وقصر النظر والتعصب تركتنا نفكر بطلاقة فانا نعلم جيدا أن مجرد عامل المصلحة والطمع والمادة لا يستطيع تفهيمنا كيف ان اختلاف اللغة وحده يقسم المدينة الواحدة قسمين دون ان يكون للثروة والفقر دخل في ذلك ! كيف يتأتى ان احد الشقيقين يكون يساريا ويذهب شقيقه الى الخندق المقابل فمهما حاولنا تقديم نموذج لتماثل المحيط لما حصلنا على ماهو احسن من تماثل محيط الشقيقين ؟ كيف صار كثير من اولاد آغوات عشيرة الدزدئى شيوعيين بعد الحرب العامة الثانية فكانوا هم سببا بارزا من اسباب الحركة الفلاحية التي انبعثت في صيف ١٩٥٣ ؟ كان فلاح الدزدئى وقت تسوية الارض وقبل ان ينشأ بينهم رواد في اليسارية هو الذي أثبت ملكية الاغا للارض بشهادته ولم اسمع ان احدا منهم اثار نزاعا حول ملكية الارض الا ما قد يحدث من النزاع المعتاد الذي لا دخل للطبقية فيه . لماذا لا يزوج الفلاح المسلم بنته من غير المسلم ؟ لماذا لا يتطوع رجل من لاهور او كابول بالسعي في المصلحة العامة بما يساوي دينارين ولكنه بكثير من عناء القلب يوفر بضع مئات من الدنانير يحج بها الى

مكة ؟ كثيرا ما تسمع في الاجابة على هذا السؤال بالذات ان الحاج بعد عودته من الحج يستطيع بجاذب من عمامته الدالة على الحج ان يخدع في سهولة عامة الناس في معاملاته ويحسبون ان هذا الجواب كتم انفاس الدين واثبت الجهة الدنيوية في موضوع الحج !! هذا التخيل ليس باطلا فقط فهو مقلوب أيضا ذلك انا اذا سلمنا جدلا ان الحاج يحج في كل مرة بنية خداع الناس ، وهو افتراض باطل تماما ، فان ذلك يوضح موقف عمنا الحاج فقط ؛ اما الناس الذين ينخدعون بعمامته فلأي طمع دنيوي يرضون بالخديعة ؟ حقا ان حرمة الحج تظهر بشكل أوضح فيما لو ثبت ان الحاج يحج البيت بنية خدع الناس ذلك ان الخديعة اذا وجدت تصل اخبارها اسماع الناس فاذا بقوا متجاهلين خدعته وثابروا على التعامل معه فان ذلك يمنح الحج مكانة اعلى بمراحل مما كنا نتخيله ، مثل ذلك مثل شاب يحب فتاة ويعلم ان كمينا نصب له فيذهب الى موعده معها رغم ذلك ففيه دليل على ان عشقه ليس شيئا مألوفا . الحاج المحتال الذي يزور الكعبة بنية الخديعة يعلم بداهة ان للبيت والحجر الاسود حرمة عند المسلمين ويحترمون خرقة صفراء يلف بها رأسه كعلامة على دورانه حول الكعبة وتقبيله الحجر وان الحرمة مردودة على الغيب وليس على الدنيا ولولا ذلك كان خليقا بمحتال كردي ان يزور جبل قنديل وسهل مخمور فالاول مصيف في مراتب الجنة والثاني مخزن القمح الذهبي لبلاد الكرد حتى اذا رجع الى الناس نادى عليهم : تعالوا قبلوا يدي واتركوني اخدعكم فقد حججت الى اوطانكم الحبيبة !! ان احتيال الحجاج دليل على عظمة مقام الحج في القلوب. فاذا كان لنا ان نقيم من الاحتيال باسم الدين دليلا على قلة اعتباره فقد لزم ان نتخذ من الاحتيال باسم الاشتراكية والشيوعية دليلا على بطلانهما فان كثيرا من ناس هذه الدنيا يتظاهر ويتغنى باعتناق هذه العقائد في سبيل تمشية مصالحه ! سمعت من يقول ان الناس في سنوات القحط باعوا القرآن فشروا بثمنه الخبز مبرهنا بذلك على زيادة حرمة الخبز على حرمة القرآن : اعلم بالبداهة ان الخبز

وسائر اسباب المعيشة اشياء محترمة ولكن اعلم أيضا ان بيع القرآن مقابل الخبز في سنة القحط تدلل على المقام العظيم الذي يحتله القرآن ففي سنوات ضنكة كالقحط لم يكن يوفر القوت الا الذهب والمستقفات فلو باع احدهم اولاده ما وجد من يشتريهم بقرصة خبز واحدة فاذا كان القرآن قد وفر الخبز فقد صح انه اكبر قيمة عند شاريه مـن الذهب والمملوكات فالقرآن لا هو مأكول ولا ملبوس ولا ولود ولا يورد فلسـا في أي جيب •• فاذا تأتى ان يوازن القرآن بالخبز في سنة الموت جوعا فلم لا تحصل الموازنة في سنوات الرخص لمعرفة مقام الخبز ! انا لا اطلب بكلامي هذا ان ينقلب القارىء مسلما يتلو في اليوم جزأ من القرآن وانما قصدت فقط ان تتوضـح الصفة الذاتية للانسان وأن ألفت ذهن القارىء الى طرائق التفكير التي اعتقد انها تستطيع اكثر مما تستطيع الجمل المعتادة في الصحف اليومية والمقالات الحماسية ان تكشف حقيقة دور الانسان في هذه الحياة سواء كان هذا الدور صالحا أم فاسدا • أريد أن أقول ان البشر سيد المجتمع وهو العامل الحاسم الايجابي الاوحـد حتى في الاحوال التي يعجز فيها عن تطويع الاشياء ، وتأتي سيادته من الصفات والخصائص التي تنحصر بالبشر وحده •

ربما قيل ان الامثلة المذكورة في الصفحات الاخيرة ذات اعتبار قليل وميدان ضيق قصير حتى انها لا تفيد الجهة التي تؤيد ولا تضر الجهة التـي تعارض كبير فائدة او ضرر : متى كان الحج والقرآن وحرمة المرأة المسلمة على غير المسلم ودور ابناء اغوات الدزدئى في حركة فلاحية يرفى الى مرتبة خطورة المؤثرات المادية التي تهز الدول وتبعث الحروب وتدفع البواخر الى البحار وترسل الخبراء الى اعماقها وقمة القطبين وتعقد المعاهدات وتفصمه وتسلح المجازفين بالقنابل للسيطرة على الطائرات في قبة السماء و •• و • الوف الاشياء المماثلة التي يندفـع اليها البشـر فيمتلىء بها تأريـخ اليـوم والمستقبل : النظرية المادية اعتبرت الانسان متأثرا وحسبته منقادا في ضوء الاحداث الجسام ومصالح الاقتصاد والسياسة فعلى مقتضى هذه المؤثرات

العظيمة فان الانسان هو واجتماعياته وحكوماته تضطرب وتجمد وترقص وتركع ايضا .

هذا الكلام في ظاهره يساند بقوة غلبة حكم المادة على الانسان ويكتسب اقتناع غالبية الناس وينهي المسألة لحساب انتصار المادة فاني قد قلت وقال غيري انه فيما عدا قلة من اصحاب النظر المدقق لا طاقة بأحد ان يرفع ستار المظهر ليعلم ما وراءه ! حقا ان من النكبة العظيمة للانسان في احوال كثيرة جدا ان يتصور الشخص الواقع من خلال ذاته فيخطىء فيه ، على حين تكون مصلحته في ادراك الواقع كما هو . الناس تنخدع بظاهر الامر ولو كانوا موضوعيين لاخذوا حقيقته اساسا لاحكامهم وقناعاتهم .

ينبغي ان اقول اني منذ قليل بينت رأيا أساسيا اذ قلت : « المرء يفعل ما يعتقد انه مصلحة سواء كانت مادية او معنوية ... الخ » . وواضح من هذا اني لم أنف ان المادة تكون حافزا ، وما ينبغي أن اقول غير ذلك فاني اذا كنت اعتقد أن ذات الانسان تقرر صلاح الاشياء وفسادها ونفعها وضرها لزم منه أن يكون اول شيء يصبح اساس هذا التقرير والظرف الذي تتفاعل فيه الذات هو العالم المادي وليس الهذيان والوهم ، بل ان الهذيان والوهم نفسه يولد نتيجة اتصال الذات بالمادة . انا اذا حسبت العالم رقعة شطرنج وحسبت الانسان لاعبها اكون قد سلمت بأنه لا وجود للعبة الشطرنج بدون رقعته وقطعاته . الذي اقوله مما لا يقوله الماديون هو ان رقعة الشطرنج لا تلجىء الانسان الى ممارسة اللعبة من ذاتها وبرغبتها ، وفي تشبيه العالم برقعة الشطرنج ادرك أن الانسان لم يخلق العالم كما صنع الشطرنج . وان حافز الجوع والجنس والطمع والسلطة وحفظ الذات .. واعداد اخرى كثيرة من الحوافز تثير الانسان بأكثر مما يفعله الشطرنج ، وفي احوال كثيرة ، وبتدخل اسباب خاصة ، تغلبه الرغبة في بعض هذه الحوافز حتى تخاله قد افلت زمام ارادته ، ولكن لا يلحق ضرر بالمادة والعالم والمحيط واي شيء خارج وجود الانسان

من تشبيه العالم بالشطرنج لاني لا اقصد به التقليل من اعتبار المادة واتخذ من التشبيه سببا لتنزيل درجتها وغاية ما اقصده هي انه في كل الاحوال يكون الانسان هو بطل مسرح الاجتماع وان العالم ورقعة الشطرنج ــ النفط وجلد الثعلب ــ ضوء الشمس واسفنج البحر ــ ... الخ كلها في مقام المعمولات الا اذا حسبنا نزوع نفس الانسان اليهن ضربا من الفاعلية .. وليس ذلك من الحق في شيء .»

في الازمان الماضية لم تكن للشعوب عموما أية حصة او رغبة بالرضا والرفض في الاحداث الجسام التي كانت تشاغل الدول . والغالبية العظمى من الناس كانت قادرة فقط على الانشغال في الاشياء البسيطة المذكورة في الامثلة المتقدمة . الوف المشاغل من مثل وقوع الطلاق والمصالحة بين الاقرباء والاستماع الى الحكم في المساجد والتكايا واستعادة حكايات الافراح والمآتم وألعاب السمر بملبساتها ومكسراتها وسالوفة جاء فلان وراح فستان وما شابهها من توافه الامور [ويا للأسى] هي المحتوى الاهم الذي يملأ حياة غالبية الشعوب . والاحداث الخطيرة التي يهتم بها التأريخ وتتصدى النظريات لاحتضانها لم تكن ملكا للناس بأكثر من كونها تتلى عليهم قصصها كما تتلى داستانات الامير ارسلان والامير حمزة ، والناس من جانبهم لم يكن لهم طمع في تلك الامور الجسام ولم يعتبروها مما يملكون لو لم تأت اليوم انا وانت عن سبيل فنون خداع النظر الفكري والفلسفي وتحقيقا لهدف سياسي قائم فنعزوها اليهم . افراد الشعوب في تلك الازمان الغابرة كانوا يحسبون يوما لا يرون فيه ممثلي السلطة والقوة هو يوم الامان فاين هم من المشاركة في خيرهم وشرهم . حتى يومنا هذا لم يزل الخوف من رجل الدولة وصاحب الصولة راسخ الجذر في قلوب اولئك الذين يسمونهم «الشعب» لقد كتبت قبل اليوم ان الشعب المسكين لا حاجة به الى تمليكه احداث التأريخ بكل ما فيها من قبح ونذالة : ان اي فرد من الشعب يملك في حياته مقدارا من الاعمال السيئة يغنيه عن اية زيادة تضاف الى قائمتها عن

سبيل اشراكه في تلك الوقائع الضارية الكالحة التي لم يكن له فيها يد ولا وقعت برغبته • يا ترى اي شرف يكسبه بستاني فقير عديم الحيلة من الكوفة بتنصيبه شريكا في الكوارث القذرة التي كان اصحاب القصور في العصر العباسي يشبعون بها نوازعهم اللا مشروعة ؟ قل لي عن سكان روما في عصر نيرون ، ما عساهم يكسبون من فخر اذا قيل ان نيرون أحرق بيوتهم نزولا على رغبتهم ؟ او اذا قيل ان روما احرقت خلافا لرغبتهم فأي من عجلات التأريخ تتعطب ؟ تتعطب ما تتعطب في أسفل سافلين : فأهل روما لا كانوا على علم بالحريق ولا كانت لهم فيه رغبة أو قدرة في حدوثه او منعه • اقدم لكم مثالا من ايامنا على مسكنة الشعوب يغني عن استعارة المثال من التأريخ : في سنة ١٩٦٧ بعد انتكاسة (٥) حزيران تقرر تنقيص رواتب الموظفين فوجدت في قائمة راتبي ان ٩٠ دينارا قد أسقط منه باسم النكسة ومساعدة فلسطين ولا ادري ماذا ، فقلت : يا اخوان ! ما اعظم وطنيتي وأنا ساه عن نفسي !!!

الامم عامة ، بعد انقضاء العصر الديمقراطي لمدن اليونان ــ والى حد ما للرومان ــ لم تكن لها يد في الاحداث الضخمة حتى عصر الثورة الفرنسية وعندها ايضا ، بحسب ما نقرأ في التأريخ ، لم تكن الشعوب كلها وصلت مرحلة المشاركة في الاحداث العامة ولا كانت الشعوب المشاركة تسوق الاحداث وفق رغبتها •• ولم تزل كثير من الامم لا تملك من امرها الا ما كانت تملكه سومر وأكد • مع هذا فان مشاركة الامم في الاحداث وانشغال الاقوياء بالامور الخطيرة لا تعين « المادة » مقدار ذرة في ان تصير سيدة نفسها او او سيدة الانسان لان الانسان هو المنشغل وليس المادة فاذا كانت الاكثرية لا تقرر وانما تقرر الامور افراد معدودون فان هؤلاء المحدودين المعدودين هم ايضا بشر ، فضلا عن ذلك فان المشاركة والانشغال لم تكن مثل ارتفاع الزئبق في المحرار حدثا آليا اضطراريا حتميا غير قابل للتغير اذ يصعد الزئبق بالحرارة جزما وحسما • الانسان ، سواء كان شعبا او حكومة ، لا ينحاز عفويا الى الطمع والرغبة والشهوة وليس خوفه أيضا كخوف الخروف

والعصفور اليا وساذجا : الانسان في احوال الخوف والطمع والعبادة والتجديف والتضحية والافتداء و .. وسائر الاحوال يملك ذاتا تتعامل مع هذه الحوافز فاما باتتصار واما بانكسار ، حتى انه في الاحوال التي تتعطل فيها ذاته تلقاء المحيط الذي هو صانعه او صنعته الطبيعة فلا يقوى عليها يكون هو وحده العامل الايجابي ولكن في حال الهزيمة : انك اذا عجزت عن حمل كيس قمح من ٢٠٠ كيلو غرام لم تصبح انت متأثرا بالقمح والقمح مؤثرا فيك فانت تظل حيا وصاحب ارادة ويظل القمح ميتا وفاقد الارادة سواء رفعته ام عجزت .

ما قلته من انشغال غالبية افراد الناس بالامور التافهة العائمة الضيقة القليلة الناتج حقيقة كانت ملحوظة طوال تأريخ الانسان ، والاشياء التافهة هذه هي التي اضافت طعما وعطرا الى حياته المرة المعتمة المتمسكنة وهي التي زادت في فرحة الناس الموسع عليهم بالرزق والقوة ذلك ان لذة العيش الرخي هي في الدبكة المختلطة ولعبة (الكوشك ــ شايعة بين الاكراد) ونوادر جحا وصيد الخنزير وتفاريح الربيع وما شاكلها من امور صغيرة وليس في الامور الهائلة المرة العفصية الطعم القاطعة للنفس المرهقة ، حتى ان الهدف في الانتصار في الامور الخطيرة هو التلذذ اللاحق من النمائم التافهة اللذيذة . ترى الغني يصرف المال الكثير في اقتناء فرس جميل او جارية شكلة او بساط مليح او اي شيء اخر متصف بالبداعة ، مع ان الجمال لا يشبع الانسان ولا يقيه الحر والبرد .. ان خطورة هذه الاشياء الصغيرة التي شغلت رغبات الناس عبر القرون لا تفقد اعتبارها بوجود شيء اخر يقال له المعيشة وتوفير القوت وان تكن الحياة نفسها غير ممكنة بدونهما . اني حين اذكر هنا المعيشة الى جانب الاشياء التي لا ترتبط بها المعيشة أقيم المقارنة بين امرين كلاهما يحقق رغبة الانسان لذلك لا يكون غلبة اعتبار احدهما على الثاني منتقصا من فاعلية الانسان ، ولست أهتم برجحان كفة اي من الجانبين في الخطورة فلا ضرر يلحق اي شيء على علات الاحوال ، وان يكن خفة كفة المعيشة قيد شعرة

تفصم كل نسيج الناس الذين يعتقدون ان التأريخ عبارة عن النزاع حـول (فائض القيمة) وهم في هذا على بعد كبير من الحق لان النتيجة المستخلصة من الموازنة والتحقيق والتجربة هي ذاتها حقيقة المسألة فما الداعي الى ان يكون بطلان او نقصان دور أحد العوامل التي اعتبرناها المؤشر الاول سبب في انكسار خواطرنا .. اقول هذا على حين اعتقد انا نفسي ان الانشغـال بالمعيشة يحوز القسط الاوفر من حياته وأنها اكثر الاشياء توريطا له ودورانا به ها هنا وها هنا . وهذه الحقيقة على قدر من الوضـوح والبداهة يماثل ضرورة الماء والهواء للحياة وان قسما كبيرا من الكتابة والفن الحديثين يطوف حول المعيشة والقوت ويستزيد فيه ولربما استدان له أيضا .

هذه الخطورة لدور المعيشة في حياة الانسان أنجمت ظاهرة خاصة في الاجتماع الواسـع لم أجـد حتـى الساعة احـدا ممن يهتمون بالاقتصاد والسياسة والتأريخ قد اشار اليها فاذا كانت كتابة ما تطرقت اليها ولم اقرأها فلا ألام على اهمالها :

المعيشة وهي الهدف الاول من نشاط الانسان ، أمر ذو صعوبة وكلفة كبيرتين في حياة اكثرية طبقات الشعب وعلى بعد سحيق من النعومة والمرونة والطراوة . لا اعدو الواقع اذا قلت ان حرفة الشغيلة في مثل الحصاد ودوس البيدر ونقل التبن والحب هي بعبع الحاصود وكابوسه ، يهريء فيه عصب الرجولة والانسانية . ان الذين يطلعون عن كثب على هذه الحياة يعلمون في اي عذاب شرس مميت هو الحاصود والكاروب وناقلة السنابل ، والحاصود منهم خاصة ، حقا لولا الضرورة الملجئة التي تحكم حتى بقتل النفس في بعض الاحيان فان الفلاح لا يلحق بصف البشر قبل ان ينجو من المحراث والمنجل . ان هذه الصعوبة وقطع النفس هي التي لا تسمح بوجود بستة او غناء في كل مراحل الفلاحة الا في اليوم الاول والثاني من الحصاد في اواخر الربيع اذ يكون الجو لم يزل باردا والزرع طريا والحاصود لم يعصر بعد في عذاب القبر تسمع

من الحاصود الشاب القوي الواثق من نفسه يغني ابياتا قصيرة من اغاني الحصاد (هه درونه درونه درونه ، ده سكى داسيم به رونه ــ يا حصاد يا حصاد يا حصاد ، مقبض منجلي مدهون) وبعد ذلك بئست الحال حال حاصودنا وفلاحنا ! في ختام كل يوم من ايام الحصاد والبيدر يجب أن تشيع في جسم الحاصود روح جديدة والا فان متبقي روحه من اليوم المنقضي لا يكفي لنزع الروح في يومه التالي • أنا لا استغرب قطعا حال الفلاح الروسي على ايام ستالين حين تقرر حرمانه من ارضه فعلقت النار بحشاه فراح كالمجنون والمكلوب يقتل بهيمته وسائمته منعا لوصولها الى يد حكومة تأخذ منه ارضه وتستبقيه فلاحا • فانظر الى هذين الموقفين تلقاء مصلحة واحدة فكلاهما ذاتي : اما ما كان من ستالين فهو نوع من الدلال والفتونة على تخت ناعم متكأ فوق واقع وجب ترويضه وتدجينه وتخنيثه وقتل خياره • وكان موقف الفلاح تشبثا بالارض والسائمة التي كان دمه ودم ابائه واجداده ثمنا لها ، وكان عامة الشيوعيين يصفقون بحرارة لفتونة ستالين لا تعتري قلوبهم خلجة رحمة ويشبعون الفلاح المهدور الدم تجريما واتهاما • لقد كلمت شيوعيا في السنين الاخيرة حول هذه المسألة وهو شيوعي على شيء من الواقعية فتبين انه لم يزل متحيزا لسياسة ستالين : كان يقول ان الفلاح كان جاهلا لا يعرف مصلحته •• فما اشد اضاءة وانسانية هذا التفكير ! ثورة تقوم لاراحة الفلاح بالدرجة الاولى فتفرض عليه بالكرباج والقتل قانونا يكرهه ويظهر فيما بعد انه قانون فادح الضرر ولم تنهض الزراعة السوفيتية من كبواته حتى هذا اليوم ، وبعد اربعين سنة من المحنة ومن ادانة ستالين نفسه يصر الشيوعي على صواب ذلك الخطأ وشقاوة ذلك المسكين !! لا حاجة بأحد الى كلام : فانه من الواضح في ذاته ان موقفا كهذا لا ارتباط له بأي طريق مندثر للموضوعية فهو موقف ذاتي تاه طريقه وينتهي الى خسران الانسان في كل حساب •

الفولكلور في المعتاد لا يتعامل مع الحرف والاعمال المرهقة التي تجعله نصف حي : خذ الحكايات المنظومة والمغناة مما يسمى (بەندو بالوره ــ اولهما

نظم وثانيهما نظم ونغم) الى سرد السالوفة في (اللاوك ــ شبه ملاحم شعبية منظومة منغومة) حتى البستة والدبكة فكلها تدور حــول مواضيع يؤدي سماعها والمشاركة فيها الى راحة السامع والمشارك • صنعة العامل والفلاح لا تتضمن الا التعب والعرق فلم تستطع اغناء تراث الغناء والبستة فالظاهر ان الذين يلتمسون الهاء الذات عن طريق السماع أو المشاركة يتصدون عفويا لمادة وبضاعة من شأنها مسح الام الحياة من الخواطر • كل الروايات التي تدور حول بطولة اولاد الفقراء تؤول بهم في النهاية الى الحياة الرخية السخيــة التي لا تحصل في الفقر • واظــر الى حرفة (الراعي) فبسبب أنها اقل تعب وأكثر حرية من حرفة العامل والفلاح فقد وضعت في يده (الناي) أولا يروق به باله في الفضاء المفتوح ويستميل بانغامه غنماته الى المطاوعة ويشرب مــن لبنها على قدر الطاقة • ان الراعي ونايه كثيرا ما يصبح بطل المسرح في المادة الفولكلورية •• الانسان يميل بطبعه الى الراحة ولم يجد راحته قط في الفلاحة والعمل المأجور حتى يتغزل فيهما في الحكاية والاغنية •

ولما كانت المعيشة امرا بالغ الصعوبة ولم تكن من مواضيع الاسترخاء فانها مذكورة في نوع الفولكلور الذي لم يبتدع للاسترخاء : المعيشة مذكورة في الامثال والحكم الشعبية ونحن نعلم ان (الحكمة ــ المثل) تقع موقــع الفلسفة من اجتماعيات اكثرية الشعوب ، والفلسفة لا تستهدف رسم البسمة على الشفاه بل مواجهة النواحي الصعبة في الحياة •

ان اوضح ظاهرة اجتماعية [فولكلورية] تنسحب الى جهة المعيشة هي الاحتفال الضخم بتقديم ضحيــة بشرية الى النيل قديما فيما يسمى (وفاء النيل) على أيامنا • هذا العرف والدأب الاجتماعي دام حتى انتشار الاسلام في مصر • لاشك ان زفاف فتاة حلوة مجلوة الزينة الى احضان أمواج النيل برسم (المكافأة) عن ازدياد مائه لسقي المزروعات ، فيه اعتبار عظيم لمكانة المعيشة وهو في ظاهره يرجع بالاحتفــال الى الموضوعية لا الذاتية ، لكــن

الموضوعية هذه تنقلب الى خادمة للذاتية من زاويتي نظر اساسيتين : اولاهما أن الاحتفال وما يقترن به من بسط الكف بالتضرع وبالدمع والنشيج كلها تطلب ترضية (الغيب) التي هي في ميزان التحليل المادي والموضوعي واجهة شامخة لاشتباك الذات بقوة غير مرئية • ولا فرق من وجهة الدلالة العميقة للتصرف بين وفاء النيل واقامة الاهرام لصون الجسم املا في انبعاث الروح ، او دوامها ، بعد الموت • وثانيتهما ان هذه التضحية لم تكن رائجة فقط لضمان المعيشة ففي كثير من البلاد كان العرف المتبع ان يدفن مع مليكها كل المتصلين به عن قرب من خدم وجوار وزوجات •

كثيرا ما تجد المفكر المادي ينجو بنفسه وبنظريته من حراجة المواجهة مع بعض الظواهر اللامادية في سطحها المرئي فيقول ان تلك الظاهرة أيضا ترتبط بالمادية في التحليل النهائي وهو في قوله هذا بادي الرضا عن الذات ويرضى عنه خلق كثير بتصديقهم له • حقا ان هذا النوع من علاج الحراجة فضلا عن انه لا يمت الى الموضوعية والعلمانية بصلة ، الا ما كان من التلاعب باللفظ ، فهو غارق في الخطأ ايضا من وجهتين :

الاولى انه يريد ان ينسيك أن ما يعول عليه في تحديد موضوعية ولا موضوعية الاشياء ومن الصلاح والفساد هو حالها الراهن لا حال الآباء والاجداد فاذا كنت ظمآنا في مجرى ماء جاف قاس ، لا جدوى لي من انه كان نهرا فجف ماؤه •• فلان كان منذ سنتين مليونيرا فأفلس فهل يقرضه صاحب التعليل على ضوء ثرائه قبل سنتين ؟ حقا ! ان موتى القبور ايضا كانوا احياء ! هذا الاسلوب في تجاوز الحرج يشبه حال رجل راهن في الشطرنج فاوشك على الهزيمة فيروح يتحايل لارجاع قطعه الميتة الى رقعة اللعبة • يا اخوان ! لا احد منا التزم على نفسه ان يكون التحليل الفلاني والتصور العلاني صحيحا ، فاذا أصبحا (قونطرجية) النظريات فما عسى ان يبقى لنا ولفلسفاتنا من اعتبار ! ما من شك في انه اذا جاء التحليل الفلسفي في ميادين

الاجتماع فتخلى عن الواقع المنتصب بالذهاب الى المنابع البعيدة فحاول ان يعالج المشاكل القائمة في ضوء تلك المنابع فهو خليق ان يورط المجتمع في مهالك لم يقدر على مثلها العدو ، والقضية من الوضوح بما يغني عن الاطالة .

الثانية ان هذا الرجوع الى المنابع البعيدة من جانب المفكر المادي يكون فقط فيما يعود بالنفع على عقيدته ويوجه المناقرة نحو انتصار الفكر المادي ، فاذا كان ارجاع الشيء الى منبته لا يخدم التحليل المادي فلا يلتفت اليه ولا يسلم لاحد بالالتفات اليه . اقول في المثال : انه على قدر ارتباط مصلحة نظريته بتماثل البشر يصرح بان الشعوب اخوان ، فاذا تعطلت سوقه بالسلام والامان لا يقبل ان يكون اهل زقاق مدينة واحدة اخوانا رغم انتفاء اي سبب للعداء . ما اعجب ان نكون جميعا اخوان جميع البشر ولا يجوز لنا او لغيرنا من الامم ان يكون افرادها اخوانا لبعضهم ولكي ينازع بقال من راوندوز عاملا من راوندوز في عداء طبقي ، يكفي بنظر المفكر المادي ان يتفاوت برجوازي الماني وعامل الماني في المصلحة . في اولى يام وثبة ١٩٤٨ تظاهرت مدينتي ، كويسنجق ، مثل بقية مدن العراق منذ الصباح الباكر بكل طبقاتها ودامت المظاهرة في مسيرة عامة تخللتها بكثرة ملحوظة مواقف المتطرفين بشعاراتهم وهتافاتهم المثيرة . وعند الظهر تراآى للناس انه كفى ما قد كان وآن أوان الانتشار فتصدى لهم يساري في نهاية نهايات التطرف قائلا ، كيف ترجعون الى بيوتكم الخربة ؟ اذا كان الحمار يجد عشبا يأكله فأنتم لا تملكون حتى العشب ! كيف تنتشرون بلا اراقة دم ؟

هذا الثوري المدمر هو بكل اسف نموذج امثاله حتى في البلاد المتقدمة فهو لا يفرق بين كونت فرنسي عام ١٧٨٩ كان يلهب ظهر الفلاح بسوطه وبين بزاز من كويسنجق عام ١٩٤٨ كان يدفع الشهرية للحركة الوطنية وأغلب اهله واقاربه مشاركون فيها بقلوبهم واعمالهم . في حالة البزاز هذا لم يكن يهتدي بتحليل يقول ان البزاز أيضا في قبضة المحتل وحكم المستبد مظلوم كالعامل والفلاح ، بل على عكس ذلك كان ينظر اليه فقط على أنه متميز من المعدم .

دنا اسوق هذا النمودج من محيطنا حتـى يساعدنا معرفتنا بالنمودج وتساوي بزاز كردي مع عامل كردي في معاناتهما من تسلط غير مبرر ، يساعدنا على زيادة التوضيح في ان الفكر المادي يقوم في وقت الحاجه بتبريز الفروق بين الاشياء متناسيا مبدأ (التحليل النهائي) ومقولة (في الاساسات والجذور) والا ففي مقدوري عن طريق فكرة التحليل النهائي وأختها الاساسات والجذور نفسها ان أقرب بين أشد الاشياء تباعدا في نظر الفكر المادي فاقول ان العامل والرأسمالي ليسا فقـط في التحليل النهائي بل هما مـن اول نظـرة كائنان بشريان .. كذلك المحتل ومن وقع عليه الاحتلال بل اتمادى اكثر فاقول ان الانسان و (شجوة) الخضيض كلاهما مادة .. في التحليل النهائي يتساوى قشر البطيخ مع المركبة الفضائية من حيث المادية .. ترى ان هذه النماذج تنحو نحو النكتة وهي كذلك فعلا ولكن ، في مبعدة من كل مجاملة ، اقول ان نزع الخطورة من الظاهرة اللامادية بارجاعها الى اساس (مادي) في محاولة لتمتين الفكر المتحيز للمادة ، ولا تحصل المتانة هذه الا في الخيال ، يليق به في المقابلة ان تخفض من بريق المادية بالمقارنة بين الامثلة المادية التي كلها مادة ولا يشبه احداها الاخرى ولا يجوز في أي مذهب ان يقال مادامت كلها مادية وجب ان تكون متماثلة . فاذا قلت ان جلد الثعلب والطائرة كليهما بحسب ماديتهما سواء في التطوير الاقتصادي والاجتماعي سارع المفكر المادي الى معارضتي ورد كلامي بالف دليل فاسارع لاقول له ان (النبوة) و (حرفة الخباز) أيضا لا تستويان في اي قياس لا من حيث مصدر وجودهما ولا من حيث دور كل منهما في المجتمع . ان تقليل بريق المادة عن سبيل المقارنة بين الامثلة المادية اقوى في المناقشة ، ويأتي تناقص البريق من تجاهل خصوصية وصفات الاشياء وحصر خطورتها في ماديتها أو (كونها مادية بحسب الاصل) .

هذه الخدعة التي يمارسها الفكر المادي تنبعث مباشرة من (ذات) صاحب الفكرة وليس من موضوعية النظرية فالتفكير المادي ليس كله فكرا محضا

بل اكثره سياسة ولا يوجد نشاط فكري غارق في الذاتية بقدر السياسة • انك اذا أنعمت النظر وجدت ان مبتدع النظرية (وبعده كل اتباعه ومؤيديه) مستهدفا تقوية السياسة الموجودة في مضمون الفلسفة ذاتها أقام لها أسسا من الفكر المنحاز الى المادية حتى يتسنى له عن سبيل ربط الفكر والفلسفة بالمادة ان يجاهر بحتمية النتائج التي يستنبطها من فلسفته لانه اذا كانت الفلسفة مولودة من المادة وجب على سبيل الحتم والضرورة التسليم بصحتها من حيث ان المادة ليست موضع انكار او معارضة • ان اضعف الافكار واشدها تهافتا اذا تم ربطها بالمادة قبلت على انها صحيحة تماما لان المادة اعظم حقائق الوجود وأخلاها من الشبهة • وغاية الصعوبة فيها أنها تحتاج شيئا من الذكاء و (الاستذة) وبعد ذلك ، فكما أن قولك بانك استخرجت الاوكسجين من الماء يضمن تصديقك بسبب ان المادي مادي ومحسوس وخال من الحيلة كذلك اذا ادعيت استنباط فلسفتك من المادة يصبح الايمان بصحتها أمرا ضروريا فاذا تمت تسميتها بالاشتراكية العلمية لم يجرأ احد على الاعتراض •

ان الهدف السياسي في الدايلكتيك استعمل ذكاء اخر ضخما في بناء احدى قواعده الاقتصادية المشهورة التي هي أيضا عبارة عن رداء من الموضوعية لف حول قامة ضخمة مديدة من الذاتية : ان مقولة مسلمة وكثيرة الشيوع في الاقتصاد الماركسي تردد ان تطور وسائل الانتاج يستتبع تطور علاقات الانتاج وبعدها يحصل تطور المجتمع كله •

في رأيي ان هذه المعادلة واحدة من الفخاخ الفكرية الضخمة المحكمة المدولبة التي تلتف كالاخطبوط حول دماغ الانسان فتعطله وتشله وتحمله على التسليم بان وسيلة الانتاج هي الام والاب للاجتماع بدساتيرها واعرافها وافكارها ومعايير شرفها •• ندر ان حدث لمقولة واحدة ان تستطيع على هذه الصورة المريضة واللامنصفة وفي عداء صريح للانسان وللتفكير أن

تنكح الدنيا كلها • في هذه المقولـة ارتفعت مرتبة وسيلة الانتاج في حياة الانسان المادية والمعنوية على مرتبة الصنم بين الوثنيين ، لان الوثني يمارس عبادة الصنم من فرجة المعنويات المتصلة بالغيب وتبقى نواحي وجوده الاخرى أقل تأثرا بمعتقدات الشرك لكن المقولة الخاصة بوسيلة الانتاج في ميـدان الاجتماع الواسع تصبح كالسحاب المطبق على جماع عالم الانسان وتأتي زيادة خطورتها من أنها تصبح دين جبهة المثقفين الذين هم رواد المجتمـع واساتذته في مادياته ومعنوياته •

من الواضح ان كل هذه الهدية والبقشيش العظيمين يرميان على قدمي وسيلة الانتاج ما هي الا محاولة لوضع تاج الامامة والاولوية والرئاسة على الرأس المنفوخ بالهراء للعامل الاقتصـادي ودوره في التطور الاجتماعي ، وليتسكع الانسان العاجز الذليل في المرتبة الثالثة والرابعة من الفاعلية يطرد الذباب من شدقيه •

من وجهة الذاتية والموضوعية فان هذه المقولة لم توضع فقط من اجل هدف مقرر ونهائي لا يقبل الزيادة والنقصان فتستحيل بذلك الى وليد ذاتي مبالغ في تدليله بل انها جاوزت الذاتية الى الغرق في الميتافيزيكية لانها تأتي من الغيب بتطور وسيلة الانتاج ولا تتعب نفسها في العثور على العوامل التي تطور الوسيلة • ان مقولة كهذه ضبابية ومنتهية الى الغيب لتعجز حتى عن تفسير نفسها لا تستطيع تفسير غيرهـا الا بقلبها كما قلبت نفسها الى (امر واقع) بلا تفسير •

فكر حيث انت في قول يقول : (اذا جاء الربيع يتفتح الورد وتميل الدنيا الى الدفء) دون ان يرجع بالربيع الى اقتراب الشمس من التعامد على الارض وتلاشي برودة الشتاء فمثل هذا القول في صورته هذه يوحي بقوة غيبية ميتافيزيكية لان الربيع لا يأتي بنفسه دون سبب حاسم فاذا لم تكن الشمس

سبب مجيئه تبقى قـوة غيبية فقط ان تكـون عملت عملها . كذلك وسيلة الانتاج : فاذا لم نعلم ما سبب تطورها نبقى مبهوتين امام الميتافيزيك .

اعرف شخصا كان متخلفا عقليا يقول : القمر أفيد من الشمس لانـه يضيء الليل المظلم والشمس تطلع علـى نهار منير . كذلك : وسيلة الانتاج اكثر فاعلية من البشر لانها تتطور فتطور المحيط والقانون والعقيدة وكل شيء ام االبشر فانه ببركات وسيلة الانتاج يقبل على واقع متطور .

ان كتاب هذا العصر الحريصين على عدم الانقطاع عن قافلة الماركسية ، يبدو عليهم فضل انشغالهم بالعثور على مظاهر واحداث ومقولات وتصرفات في القديم والحديث يكون من شأنها ان تصلح أدلة على صدق هذا الدور الخطير لوسيلة الانتاج فيروحون متمادين في اقناع الذات وخدع النفس وممارسة (الاستغماية) كي يستطيعوا هم ايضا تسليم تأريخ شعبهم الى هذا العفريت السحري الاخطبوطي كما يفعل كتاب الغرب في تفسير ظهور المسيح بالاسباب الاقتصادية التي هي في هذا السياق . والكلفة الفادحة في هذا الجهد تتمثل في محاولات ارجاع ملايين الاشياء المختلفة الى أصل واحد ننتظر منه بحكم البديهة ان تلد اشياء متماثلة . لا جرم ان هذه المحاولة تتطلب مباشرة وابتداء تحييد البشر ودوره وذاته وقناعته وشهيته وقابليته الموروثة الخلاقة فتعزله على جنب حتى تستطيع حضرة المحراث ودودة القز وشبكة الصيد والمنجل والمنشار والمطرقة والرحى والنحل والعشب وبيض اللقلق .. بلا تدخل من عامل البشر ، تفسير منطق ارسطو وفلكيـات بطلميوس وهندسة اقليدس وحروب هانيبال واستخراج الجذر التكعيبي والخلاف بين الغزالي وابن رشد وتزامن الملحدين والمؤمنين في العصر العباسي والتفاوت في احكـام المذاهب وديمقراطية الاغريق القدماء وفظاعة حكـم بقية الاقطار وحرمة الخنزير والارنب على بعض المتمذهبين وظهور الف لغة ولغة وعشرات الوف العادات ومئات الوف الشعائر وملايين الاشياء الاخرى في الاجتماع فتردها

الى تطور وسيلة الانتاج • وم نراجل ان تتعطل خالقية الانسان في التحليل المادي ، محظور عليك وأنت تذكر تطور المحراث الى التركتور ان تشير الى دور العلماء والخبراء واصحـاب التكنيك والمهندسين وجميع اولئك الذين ينشغلون بالجانب التجاري من التعامل مع التركتور فعليك ان تطمره وتدوسه وتخنقه ، ولا يجوز لك ان تسأل : ما الذي منع المحراث ان يتطور في يد الحارث والفلاح والثور الى تراكتور ولم تزل البلدان التي تستعمل المحراث تسلطه على الارض بانواعها من المختلطة بالحجارة ومفروشة الوجه بالحصا ومن المثيلة والمتصلبة والنزازة والمالحـة ؟ اذا جـاز لنا ان نستعـير الحمار والبغل بوصفهما من وسائط النقل نسأل سؤال الساذج والاعشى والامي وفي منتهى التواضع حول السبب الذي منع تحول البغل والحمار الى العربانة والسيارة وسكة الحديد والطيارة عند راكبي الحمار والبغل واناس يشتهون الركوب فيحلمون به فقط • انتم تقولون (بتطور وسيلة الانتاج •••) فأي جني وغول وشيطان منع حدوث هذا التطور المتوقـع للبغل والحمار الى عربانة في قرناقو وعفك وشهربان ؟ لعلكم تجيبون بأن ظروف الاقتصاد والتعامل والتبادل والسياسة والثقافة لم تتقدم في هـذه المواطن الى الحد الضروري لتطور وسائط النقل ، فاذا كان هذا هو الجواب فما حاجتنا بمشكلة (تطور وسائل الانتاج) فاذا تطورت كل الاشياء فعسى ان يقدر الله بقاء الحمار والبغل كما هما الى نهاية الزمان •• اقول هـذا واعرف انه اذا تطورت كل الاشياء فلابد من تطور الحمار والبغل بان يوضع امام العربة في أقل تقدير ، ولابد من تطور الطرق بما يوافق دوران العجلات عليها بسهولة ، عندئذ لا يبقى دور لنظرية (تطور وسيلة الانتاج) لان نظرية اخرى تنبعث وتقول ان عملية التطور تحدث في صورة من (النمو ـ التنامي) لا عن طريق وسائل الانتاج والتناقض • وواضح ان التنامي يشمل كل شيء في المجتمع ، فعلى هذا ، بافتراض عدم تطور وسائل الانتاج عموما فالتطـور الاجتماعي يحدث ضرورة وحتما • أيا يكن مقدار الصواب والخطأ في نظرية

النمو [وارى فيها كثيرا من الصواب] فالذي يحرك الانسان سبب أكبر وأوسع واعمق وأفعل كثيرا جدا من التناقض ووسيلة الانتاج وما يماثلهما من محاور للتفكير : ان محرك الفرد والمجتمع هو (محاولة الحياة) او الاستمرار وما في معناهما بريادة عامل العقل والتفكير سواء كان ضعيفا او قويا وسواء كان يملك قدرة فهم الاشياء كلها ام لا • وكما ترى فان محاولة الحياة والبقاء تشمل التناقض وغير التناقض من التعاون والتفاهم والاخوة والصداقة • وريادة العقل خليقة ان تقود الفرد والمجتمع نحو الاهداف الصحيحة أو نحو افدح الاخطاء ، وهي خليقة ايضا نتيجة وقوعها تحت حكم حافزين مختلفين أو استاذين مختلفين أن تفتح لشقيقين من اب وأم طريقين متضادين في العقيدة أو منهجين مختلفين في السياسة • فاذا خيل اليك انه من الممكن أن تجمعهما مصلحة مشتركة وان تفرقهما مصلحة متباينة قلت لك ان هذا صحيح وهو يثبت دور محاولة الحياة وفاعلية العقل والتفكير بأكثر مما يثبت دور التناقض وبمبعدة كلية من دور وسيلة الانتاج وأنا اذ اقول هذا املك أمثلة حاسمة • فاذا كان تخاصم الاخوين على الطمع يؤيد جهة التناقض فهو في الوقت نفسه يؤيد جهة محاولة البقاء ايضا ولكن حين يأتي الاخوان أو جبهتان لشعب واحد فيقعان في الخطأ ويتهارشان ضد المصلحة لا يستطيع التناقض ووسيلة الانتاج تفسير هذا النزاع الارعن على أية صورة من الصور : من الواضح في مثل هذه الحالة ان الفكر والتحليل المقلوب فعل فعله وهو عبارة عن موقف ذاتي محض مفعم بالخطأ وقد عطل الجانب العاقل والموضوعي بالمرة ، ولا فرق هنا بين السهو والانسياق مع التغرير والخديعة لان كلتا الحالتين تعود الى الذات • لاشك في انه اذا كان جهازان من اجهزة العقل الالكتروني في موضع هاتين الجهتين المخطئتين لما أمكن صدور فتوى منهما بالنزاع لان العقل الالكتروني لا يملك ذاتا تخطىء وتصيب واذا لم تزود بالمعلومات الخاطئة لا يمكن تغليطه بافانين التغليط •

اريد ان اتوجه بسؤال ساذج اخر : هل ان تطور الكاتب والفنان

والفيلسوف منوط بتطور القلم والكاغذ والفرشاة والاصباغ والالوان ورخام الهياكل ؟ ام يرجع الى تطور المعمل الذي يصنع هذه الاشياء ؟ ام الى المعمل الذي لا يصنعها ؟ فانه لابد من ربط ارتقاء الكاتب والفنان والشاعر والعالم عبدا او وليدا لواحد أو اكثر من وسائل الانتاج فبأي من الاذرع الثمان لهذا الاخطبوط يقيد الفكر والوعي الانساني ؟ أية سمة من سمات منابع الهام وسائل الانتاج تدمغهما ؟ يا ترى بعكاز اي من طرائق [تصوف] وسيلة الانتاج تتمسك للاجابة على سؤال من يسأل : لماذا يلجأ الفلاح المسلم الى التزوج من اثنتين او ثلاث ، سواء كان لزيادة الانتاج أو زيادة الاستمتاع على حين يكتفي جاره المسيحي بواحدة ولا سبيل له الى اثنتين او ثلاث ؟ اي من متطلبات وحاجات وسيلة الانتاج يفرض ان ينشأ في المكان الواحد جملة قوانين متباينة للتعامل مع وسيلة انتاج واحدة ؟ لماذا يقوم خبير في بلاد بعيدة بتطوير دولاب الغزل البدائي الى معامل الغزل والنسيج ويبقى النوال نفسه مع نوله في طور ما قبل الفي سنة ؟ يا ترى اي من وسائل الانتاج في حجاز ما قبل الف وثلثمئة سنة أنجم القرآن فقلب في مدى ثلث قرن عرش اثنتين من اكبر دول الدنيا عصرئذ واوصل العربي الجائع العاري الامي العديم الحكومة قمة السلطة في مساحة واسعة من الدنيا المتقدمة لما قبل ثلاثة عشر قرنا ؟ قل لي ، حين انساب فيضان الجياع العراة من المسلمين نحو هذين البلدين ما الذي منع وسائل الانتاج أن تتدخل فيهما ؟ هل كان الشافعي او ابو حنيفة يستنبط اجتهاده من وسائل انتاج عصر النبي ام عصر الامويين ام عصره هو ؟ لست ادري أفهمني ، لماذا لم تتغير العلاقة بين الخياط وزبائنه يوم تحول الناس من ابرة الخياطة الى Singer ؟ انتشرت السيارة ولكن مذهب (الحقة) [التصوف] شاع في السنوات ما بين ١٩٢٠ و ١٩٤٠ اكثر من شيوعه على ايام السفر بالخيل والقدمين ؟

اتعشم الا يستغرب القارىء اسلوب صياغة وتوجيه هذه الاسئلة حين يجدهن تدور حول وسائل الانتاج بقسط ظاهر من التفكه ذلك ان استخفاف

المقولة المذكورة من (ان تطور وسائل الانتاج ... الخ) بعقل الانسان ووعيه واستهزاءها باحساسنا وادراكنا يطالبنا بقدر اضخم من الانتقام واستيفاء الثمن : فانظر كيف أنها في منتهى الطلاقة وقلة الاكتراث تقلب الانسان عبدا لرفش يتهرأ تحت نعاله ويستبدل به واحدا جديدا يشتريه بخمسة دراهم .. المنجل والمحراث والمطرقة والفخ والشبكة ، وهن اكثر وسائل العمل بدائية ، يقمن مقام اله كانت الاديان تقول انه منح البشر عقلا يستبين به طريق الرشاد والضلال ..! المفروض انك انت وانا واسلافنا اذ كانوا منذ زمان سومر و أكد يكسبون القوت بالمحراث والثور قد نزل عليهم وعلينا العقيدة والوعي والدين ومعايير الشرف والمرؤة وملاك وجودنا المعنوي ، نزل علينا كالمطر من هذا المحراث وهذا الثور ! المنجل يعلمنا الكذب والصدق ! ألا ان البشر منذ خلق لم يول المحراث والمنجل والرفش والمنشار والمطرقة ذرة اعتبار ولا احترمها قدر احترامه لنعله ، وما قد حصله من علم ووعي وصفات حميدة واحترام ذات فقد كان ضد طبائع تلك الالات الحقيرة وبرغمها . ان الحياة البائسة المتهالكة التي وفرتها له هذه الالات قد حملته على كراهتهن حتى انه ينبذهن كلما وجد لذلك امكانا ولم يزل الفلاح المفجوع يتهرب من كلفتهن الحاطمة ما وجد بارقة أمل .

اعلم وتعلم بالبداهة ان الانسان يستأنس حتى بالسجن عند الاضطرار فعلى هذا الاعتبار لابد للحاصود ان يشحذ منجله ويلف اصابعه بالخرق اذ تدخل انابيب مدببة تسمى (القيناغ) ويلبس جواريب الصوف الطويلة العنق ــ اذا استطاع ــ دفعا لعضة الحية وشكة القصيل ويقيم عريشة يبرد فيها قربة الماء ويلتمس جلدة صخلة مدبوغة للشنينة ــ اذا وجد ــ ، وفي كل يوم وبمعدل مئة مرة يلعن المنجل والقيناغ والقصيل ولا يتوانى لحظة عن الهروب منها الى المدينة عند المقدرة . هذا التعامل الذي تلجئه اليه المصلحة مع المحيط ليس دليلا على عبودية البشر ، بل على عكس ذلك ، هو حصيلة الذكاء والادراك والاحساس فلولا هذا الذكاء والادراك فاما انه يبقى في طور

الحيوانية أو ينقرض مثل الاف الاصناف من الاحياء الاخرى فانظر ما أسهل الخلاص من خداع النظر للمظاهر السطحية : ها هنا قمنا بما هو ابطال عبودية الانسان للمحيط عن طريق اظهار ما في احتيال الحاصود على المصاعب بذكائه وصونه للمصلحة ومهارته اليدوية ، وتلك حقا هي جوهر المسألة • لاشك في انه اذا كان بالامكان أن يظهر على الحيوان شيء من ذلك الذكاء لما فكر أحد في اعتباره دليلا على رضوخه وعبوديته للمحيط بل استغربوا صدور مثل ذلك الذكاء والاحتيال على المصاعب من الحيوان !!

امنح اهتمامك لتصورات الذين ينحازون الى المادة في تحليلاتهم تجدهم دائبين على قدر الامكان في التنقص من الدور المستقل الذي يقوم به الانسان في تطور وحيثيات الاحداث والاجتماعيات ، فلأن فاعلية التأثير واستقلاله يكون أظهر وأخطر في عمل الفرد تراهم يفرغون دوره من الاعتبار وينقلون تأثيره الى المجموع [هذه المسألة وضحت جزئيا في الصفحتين ١٢ــ٣١ من الجزء الثالث لكتاب حاجى قادرى كويى] وواضح ان الهدف الاساسي من هذا ليس اغناء المجموع لان المجموع لا يغتنى بالكلام ولا علم نه أصلا بوجود كتاب يزيدون حصته من الاعمال الخطيرة على الورق فالهدف هو تقليل شعور الفرد بالازدهاء •• حتى اذا تم تفليس الفرد ولم يتهندم المجموع بالابهة يأتون فيسلبون المجموع تأثيره في تقابله مع وسيلة الانتاج بصراحتهم التي لا اعتذار فيها ولا تأويل في ردهم التطور والتقدم الى تطور وسائل الانتاج • ونصوصهم النظرية تذكر هذه الوسائل على وجه من الاستقلال يوحي بأنها قد تكون نزلت من المريخ على الارض ••

• كثيرا ما اردد مع نفسي : ما الضرر فيما لو قيل ان المرأ في محاولة المعيشة والتقدم والراحة يطور وسائل انتاجه وتصنيعه ودفاعه عن الذات والتصدي للاخرين نحو الاوفق والاحسن وانه بحسب ظهور وسائله الاكثر ملاءمة يغير قوانين المبادلة بها والتعامل معها والاستفادة منها وما يتصل بها من

الروابط ، وفي ذلك كله تنشط اعداد كثيرة من الحسابات الصغيرة للمصلحة الذاتية الضيقة ومناهضة الجهة الفلانية وغضب عمرو وزيد وترحيب فلان وعلان والوف المواقف والكلام والتصرف المتباينة للمستفيدين والمتضررين فتعمل عملها الضار والنافع • مازلت اتساءل عن وجه الضرورة لظهور نظريات تفرح لوقوع لحية البشر في يد الثور والمنجل !! كيف يسوغ أن ينصرف الخيال الى أن ثبوت عبودية الانسان لوسيلة الانتاج يضمن حظه وسعادته !! اذا كانت الغاية هي انه عن سبيل ابطال دور الانسان الواعي الحساس العالم الخبير يتم رفع دور وسيلة الانتاج فيتخذ من اشد تلك الوسائل بدائية وتخلفا ، وهي المطرقة والمنجل ، رائد عموم الوسائل كي يمكن تنصيب اصحابهما الشرعيين من عمال وفلاحين رواد التقدم واصحاب الاجتماع ، اذا كان ذلك هو الهدف فما المانع ابتداء من دون كل هذا الالتواء والهراء الذي لا معنى له ان يعلن ان العامل والفلاح وهما حاملا أثقل كلفة في المجتمع يجب رعاية مصالحهما بأكثر من التمام ويوفر لهما اسباب الراحة •• ذلك ان جميع هذه العلل والتسبيبات والمعتقدات التي لم تصدر قطعا من العامل والفلاح وانما اتخذها المفكرون والفلاسفة والرواد السياسيون من فوق طبقة العمال والفلاحين ، اتخذوها مناهج للعمل أو دينا يقتدى ، فكان من الممكن أن تصاغ في صورة اخرى تكون نصوصها اكثر توافقا مع الصدق وحاوية ، مع ذلك ، لجميع الاهداف التي يجعلها المفكر المادي نصب عينه : لا يمكن ان ترتبط الثورية البروليتارية بالعقيدة التي تقول ان تطور وسائل الانتاج هو اساس العقائد الاجتماعية والحق هو ان تلهفي في هذه الكلمات الاخيرة يرجع الى التحسس بالجهة (الاخلاقية) للنظريات والمعتقدات حين اجدها تنال من كرامة الانسان في مقدار يفوق الحد من أجل وسائل الانتاج والا فانه من حيث كون هذه النظريات متسمة بالذاتية او الموضوعية فان مبتدعها كان يملك الخيار في صياغتها ولتكن انها داست في ذلك كل الحقائق او المصالح أو راعت مصلحة ضيقة لجهة معينة أو حشت نفسها بما يمكن تصوره من النوايا الصالحة والشريرة فالناحية

الذاتية في كل هذه الاحتمالات تكاد تفقأ العين : دور (الذات) لا يتناقص أبدا بان يكون النفع والمصلحة مستهدفين في النظرية ولا يزداد فيما اذا كانت النظرية صيغت للاضرار بهذا او بذاك ولكن في الاحوال التي يتم بها طمس الحقيقة على وجه الصراحة فمن حقي ان اقول انه قد تم شنق الاخلاق اضافة الى الحقيقة لان التلفيق في هذه الحالة يصل حد (الكاذبية المتحدية) .. اليس كذلك ؟

ليس مستبعدا وجود ناس يقولون في بساطة وسلامة نية ان النظرية التي لا موضوعية فيها لا ينتظر نجاحها او دوامها ، لذلك فالزعم بأنها تجاهلت الواقع والموضوع والحقيقة لا يمنح اي اعتبار لجهة (الذاتية) المعزوة اليها ، ولكن الحقيقة ، كما تظهر لعين تراها ، ان استمرار وعدم استمرار المناهج والخطط والعقائد والنظريات يكون مرتبطا بالواقعية والموضوعية والمصلحة والاخلاق .. حين يتم تجربتها بلا تدخل من السلطة وتقوم نتائجها بطلاقة بعيدا من (العين الحمرة) فتدوم أو لا تدوم بحسب صلاحها وفسادها . على ان المناهج الفاسدة يمكن ان تدوم ، في الغالب ، اكثر من المناهج الصالحة عن سبيلين : احداهما طريقة استعمال القوة والتهديد . والثانية الغاء بصيرة الجماهير الى الحد الذي تفقد فيه القدرة على التمييز بين صلاح المناهج وفسادها ناهيك عن ان الجماهير نفسها يمكن ان تكون في حضيض من التخلف ترفض فيه المنهج الصالح اصلا ، ولربما اقتلعت بيدها حجر الاساس للمناهج التي هي منبع الخير والسلامة . انا بيني وبين نفسي ، قد اتجاوز عن نوع من تعطل (الذات) حصل بالتخويف او التضليل او الجهالة فأخربت وهدمت ، ولكن هناك نوعا من (عمى الذات) لا يحتمل تجريحه وهو عمى ذوات اولئك المثقفين الذين هم رغم ادعاء العلمانية والموضوعية غارقون في (الذاتية الضالة) الى حد انهم يرفضون من أصحاب الذات المتحررة والعين المفتوحة والدماغ النير أيضا ان يقولوا اي كلام صحيح صالح او يكشفوا جانبا من الاخطاء وشيئا من العمل غير المبرر . ان (المثقف) الاعمى الذات من هذا النوع

الغليظ ينقلب اكثر من الشخص الساذج الامي الصوفي المشرب الدرويشي الطبيعة الى مارد خانق للحرية ويكون اكثر منه خبرة في تعكير الجو على الفكر النير المتقدم ، وأسرع الى انهيار الشخصية بطلاقة العقائد وحريتها وتضمر مصالحهم المادية من حيث ان انتشار اسمهم ووسيلة عيشهم ينبع من معاداتهم للعقيدة الجريئة وغير المخدوعة ، ولكن لابد من القول بان تداخل المصلحة ووسيلة المعيشة في تلك المعاداة لا تنتهي بالمسألة الى (العامل المادي) لانه من قبل ان تدخل المعيشة والمصلحة في موازين الدفاع عن هذا ومعاداة ذاك فان المثقف الاعمى الذات يشتبك مع صاحب الذات المبصرة على نحو من الضراوة توحي بأنه حارس معبد يحارب عديمي الايمان . هذا النوع من ظواهر الاجتماع كان خلال الثلاثين سنة الماضية من المظاهر البارزة في كردستاننا ولاسيما في اوان الاضطراب والتلهب خلال سنوات الوثبة و ١٩٥٩ حين اصبح ميدان مناصبة الناس العداء امام اولئك المثقفين المنطفئي البصيرة ليس فقط مفتوحا على أوسع مداه بل انه ضاق في وجه ذوي الذات السليمة بأكثر من ضيق السجون ، فلو كانت قدرة اولئك المنطفئين صارت الآمرة الناهية بشكل نهائي فمن اين للمنهج المسكين أو التجربة البائسة ان تكون ذات دلالة عند ثبوت خطئها . لقد رأيت بنفسي ، خاصة في سنة ١٩٥٩ (رائدا !) لمنطقة بوسعة قضاءين كان كل خلفيته الثقافية اشتغاله في احد الكراجات سكندا متخلفا غير موقر ، وقصارى تدرجه في مراتب التعليم انه لم يتسن له تعلم مجرد التوقيع .. الف رحمة تنزل عليه فلقد كان رائدا بحق وحقيق ..!!!

اني وان أكن كثير التأسف على اولئك المثقفين الذين يضحون بمقام (الذات) في فداء (المادة) ويعتقدون ان صنيعهم ينتهي الى مصلحة الانسان مع ان الانسان عبارة عن (ذات) مجردة ، فان أسفي على جماعة الفنانين يقلقني أكثر لان الفنان مدين لذاته اكثر من سائر المثقفين من حيث ان انتاجه مولود حشاه ومترجم دخيلته وحمم بركانه باكثر من الكلام والكتابة عشرات

المرات • قارن لوحة رسام الى قطعة ادبية لكاتب ، دارت كلتاهما حول موضوع واحد تجد ان دلالة الكتابة أوضح وأكثر اضاءة ومباشرة وموضوعية من دلالة اللوحة • اقول في المثال ، انك تقرأ عبارة : (الظلم قبيح) فتفهم منه قدر فهم كاتبه ولكن المعنى نفسه في لوحة الرسام [بدأ بالنقاش حتى السوريالي] يجوز ان يكون معبرا عنه بالحوار الداخلي للفنان وتكون صيغه وليد ذاته وصنع يده حتى يتعذر ان يختمر مثلها في ضمير شخص اخر او ان يكون مفهوما من شخص اخر الا ما ندر • ومما هو واضح بذاته أن الطرائق المتباينة الكثيرة جدا لمدارس الرسم ، وفي كل طريقة منها ، يتراآى للعين فيها آثار القدم المتميزة ودروب خاصة ومستقلة على قدر عدد الرسامين حتى اذا كان واحد منهم يتبع أثر واحد غيره يشطب اسمه من قائمة المشهورين المعتبرين • فهذه كلها ادلة على غلبة (الذاتية) في عمل الرسام فان اي واحد من الرسامين هو مشارك لجمهرة الرسامين في مدرسته من حيث ارادة المعنى والهدف والمادة ولكن دخيلته ليست من الوزن والسمة والعيار ذاتها لدخائلهم فهو ليس نسخة ثانية لاي من رفاقه مهما يكن الموضوع والالتزام واحدا للجميع • فالرسام قد ميز ابتداء شارع فكره وعقيدته عن اولئك الذين لا تجمعه بهم عقيدة ، ثم تميز في الشارع نفسه بالتقاطه خطا خاصا به والا لما كان رساما

والموسيقي أغرق في الذاتية من الرسم فالصورة المرسومة تنقل اليك ، في الاقل ، ملامح الاشياء بوضوح يمكن معه تشخيص الاصل الذي نبعت منه الصورة وان يكن فهم مجمل اللوحة فوق مقدور المتفرج فاذا ضمت احدى اللوحات عين قط وأطار سيارة وقبضة بصل وصورة شكسبير والكشتبانة فانه يمكننا ان نتعرف على مفردات اللوحة كل على حدة ولكن قد يصعب علينا مضمون اللوحة فقد يعني (صيد السمك) أو (الحرب والسلم) أو (حبيبتي) أو (القفزة الثلاثية) على حين لا تكون قطعة الموسيقى مفهومة لا في معناها العام ولا في رنة اي من الات العزف المستعملة فيها ، حتى ان الضليع فيها يستطيع فقط أن يقارب دقة قلب الموسيقار عبر تصور مفرط الاتساع فهو

أيضا يعجز عن فهم مدلول كل رنة وضجة على حين يعرف هو وعامة الناظرين قبضة البصل وعين القط .. خلاصة القول ان الفنان أشد المثقفين اغراقا في الذاتية مهما حصل تفاوت في درجتها من فنان الى اخر مـن حيث الصعوبة والسهولة والارتفاع والانخفاض . وهذه الحقيقة المتمثلة في كون المثقفين (ذاتيين) هو السبب في أنهم يضيقون حتى الاختناق وسط الشروط والقيود والعراقيل التي تنظم حياة الفرد والمجموع وتسحب وراءها القوانين والانظمة من مثل وجوب حضور الموظفين والعمال في واجبهم من الساعة كذا الى الساعة كذا او ان الفلاح مضطر ان يسوق ثيرانه مع تباشير الفجر الى الحقل وكذلك البقال والحمال والبستاني .. فاذا ألزمت المثقف والفنان بالمواعيد والمواقيت عطلت قدراته وعقمت خصوبته وتعمقه أيضا اذا حظرت عليه حرية التفكير والتعبير لان موضوعه ليس المحراث والتبن والمنجل والشبكة .. اللواتي كن عبر العصور منتجات حتى وهن في يد العبيد والمساجين : رأس مال الاديب والفنان هو دماغه وضميره ، وأصح مـن ذلك ان اقـول انه يتحد الانتاج ووسيلته في الثمر الذهني لان ذهن وضمير الفنان والاديب يلدان ذاتيهما في كل ثمرة سواء ما كان منها في اطار النثر والنظم أو الهيكل والرسم والموسيقى، حتى ان شبح هذه الثمرات في ضمير ووعي الكاتب والفنان (مقمط جنين) تمخضت به ذاتهما قبل ان يصبح قطعة نثر او رسم او هيكل . فاذا تقيض لاحد ان يرى الاشياء المخفية لامكنه ان يراه وهو بعد في ضمير صاحبه . واقول للتوضيح انـك اذا نظمت في سرك أبياتا لم يتيسر لـك تدوينها فنسيتها ، فدخيلتك مع ذلك تكون قد ولدت نفسها رغم انعدام رضيع مقمط ، وكذلك اذا ارتسم في ضمير النحات ذلك الخيال الشعري نفسه فتجلى ونحت ذاته فالمخاض الذي حدث في الداخل لا يبطل بعدم أيلولته هيكلا فلقد حبل الضمير وولد ولكن لم ينتصب الوليد في صخرة ، مثـل ذلك مثل وقوفك للرسـم بالكاميرا فقد حدث ان انعكس من جسمك الظل والنور فلا فرق بين ان تكون آلة الكاميرا معطوبة او ان ترتسم صورتك على الفيلم سالمة .

أجل ، لاشك في ان الفنان أغـوص في نفسه مـن مثقف اخر ، وعامة المثقفين اكثر اتصافا بالذاتية من غيرهم ، فلما كان ذلـك كذلك فان أعجب العجب ما أراه من تظاهر بعض الفنانين بأنهم موضوعيون كغيرهم وهم في هذا يخلطون الذاتية بالالتزام • على اي حال لا ارى من المبرر ان استرسل اكثر من هذا في مناقشة كون الفنان (ذاتيا) والا دخلنا في تكرار ما هو بديهي واكتفي باضافة ما يلي : ان الفنان من وجهة نظر التزامه يليق به أن يتريث كثيرا وكثيرا جدا في الوصول الى فقد ذاته والمباشرة باملاء دخيلته بالمواد المستعارة أو المهداة اليه لانه بذلك يفلس قبل كل الناس واكثر من كل الناس • على قدر ما يكون توظيف الفنان لفنه في خدمة التزامه نابعا من عقيدة نقية لا اعتراض عليه ، وبغير ذلك يتعرض الفنان الملتزم لانتقادين كبيرين :

اولهما ان يتولد الشك في قلبه فيروح عن طريق صراع متصف بالانهزامية يخرس شكه بعقيدة مصطنعة •

ثانيهما أن يسوغ لمن هو اقوى منه التدخل في واجبه الفني فيمتثل لطلب تبديل الاخضر بالبني او يزيد وينقص من مقاسات هيكله ويغير بالزيادة والحذف درجة الحرارة في موسيقاه على حسب الاوامر النازلة من أعلـى •• ولست اطالبه قطعا بالبطولة والفداء في هذا المجال فاحمله على التمرد الارعن : غاية ما اقوله هو عليه احترام فنه ورأيه بالامتناع عـن التطـوع بذوبان ارادته وسوفان ذاتيته او يرحب بانقياده هو وتسلط صاحب النظرة الشزراء ، وألا ينقلب جزافا الى سوط ضد الفنان الحر الذي له ذات قوية مصابرة ، ولا أظن أني بهذا طلبت ثمنا يستكثر على شرف الفن والفنان •

يبقى ان يقول لي الفنان انه اذا كان هـو وفنه بصـدد التعبير عـن (الموضوع) فكيف يتأتى أن تغلب جهة (الذاتية) فيه جهة (الموضوعية) كي يوصف بانه (شخص ذاتي) فيبتعد في الظاهر بذلك عن الموضوعية كثيرا • الحق ان هذا السؤال مجاب عنه قبل الان بما قلته من ان الانسان حتى في

انشغاله بالموضوع يظل مخلوقا ذاتيا لان تعامله مع الموضوع ليس في آلية العقل الالكتروني والمحرار الذي يتم بحسب القوانين الطبيعية على سبيل الحتم ، حتى انه ليس شبيها بتصرف الاحياء الاخرى الذي يختلط بغريزة لا تتغير وتتصل بالموضوع على صورة واحدة فتكرر نفسها دائما . بل تتجاوز هذا ونركز النظر على موضوع اهتمامه فسنصل الى النتيجة نفسها دواما من ان ذاته هي في مركز اختيار الموضوع الذي ينشغل به ولا فرق في ذلك فيما اذا كان الاختيار تم بارادة حرة ام عن طريق التعجيز والاكراه أم بالتغفيل وخداع النظر ، ذلك أنه ما من حالة يستطيع فيها الموضوع ان يلابس نفس الانسان ووعيه اذا لم يصاحب ذلك نوع من التوافق ، فالحرارة مثلا تحرك الترمومتر بلا داع الى التوفيق والاقناع والخديعة ، وكما قلت فيما سبق فان في الدنيا نفوسا وذوات لا تتخلى عن قناعتها مهما استعمل معها وسائل الاقناع المختلفة .

من الممكن ان قوما يحبون تأطير ارادة الانسان ان ينتقدوا هذه الحرية الواسعة التي قد يتمتع بها المثقفون فيقولوا ان في فسح المجال الكامل امام ارادة اولئك المثقفين محذورا في احتمال اختبار آحادهم طرقا غير مألوفة تنقطع علاقتها بروح التعاون وخدمة المجتمع واهدافه الاساسية وبذلك نخسر جهودهم اولا وتتضرر منهم ثانيا . ولي على مثل هذا الانتقاد ردود كثيرة اختار منها اثنين :

١ ــ الذين يريدون تأطير ارادة المثقفين هم بفرض حسن النية فيهم يتدخلون في حرية غيرهم وبذلك يوسعون لانفسهم ميدانا اعرض من ميدان يمارس فيه المثقف حرية عقيدته لان هذا المنتقد فضلا عن اطلاق الحرية لنفسه يأتي فيقطع الطريق على غيره ثم لا يسلم لاحد بانتقاده .

٢ ــ اولئك المنتقدون يزعمون ان المثقفين الاحرار الذين ليست حولهم أسيجة سيتوجهون الى تصرفات فاسدة هادمة غير مشروعة . وبفرض

صحة هذا الزعم [الذي لا يمت الى الحق باوهى سبب] فان في البلد قوانين وانظمة وسجونا تقاصص المثقف الهدام على حين لا يرضى المنتقدون من أحد ان يرسم حدودا حول ارادتهم أو يظن بهم ظنون اعمال السوء والهدم مع ان اولئك المنتقدين يحفرون بسنابكهم في كبد حرية غيرهم ويجوز ان يكونوا على كثير من سوء التصرف .

وبصرف النظر عن هذا فان المثقف لا يملك غير أصابعه سلاحا يرهب به غيره أو يهدم الاشياء . وما يحرك اصابعه ليس الرغبة في النزاعات والصراعات وكسر الشبابيك وقطع الاشجار وسرقة الغنم : ما يحركه هو بريق ذهنه وحرارة احنائه ، ويبدو ان المنتقدين يفزعون من هذا البريق وتلك الحرارة خشية ان ينعكس منها اللون والصوت الى ضمير الجماهير .

في رأيي ، ورأي الواقع أيضا ، ان موقف المفكر المادي في تغليب تأثير المادة على رغبة وقابلية وقدرة وفاعلية الانسان اكثر تعطيلا لدور الانسان التطويري من موقف اللاهوتيين الذين يردون كل عمل الانسان الى القضاء والقدر ولا يعترفون بشيء من قدرته الفعالة . لقد نظم والدي [في الكردية] في اولئك اللاهوتيين ما معناه :

لانهم افقدوا قدرات العبد كل تأثير
فان امة بهذا القدر من القدرة ماتت وهي حية

حقا ان من قال ان ارادة الخالق تقرر من الغيب تقدم البشر وتراجعه ، فردا كان ام جماعة لم يقل شيئا افدح ممن يقول بلسان الفلسفة ان النفط وجلد الثعلب والشلب والابرة والمحراث والمنجل ... الخ تقود خطى البشر الى أمام لانه اذا كانت مسؤولية القضاء والقدر في نظر الفيلسوف المادي انها تقتل ارادة البشر فان نهايات مواضيعه أيضا بحسب التفكير الموجود في فلسفته تركب ارادة البشر مثل ركوب القضاء والقدر لها ، ولو قال لي ان الاسباب المادية تعمل وفق الدساتير الفلانية في فلسفته فان من اللاهوتيين أيضا من

يستطيع ان يفتح بوجهي نوافذ في ظل القضاء والقدر من أجل حسبان ارادة البشر مثل « ليس للانسان الا ما سعى ـ واذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت ـ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ـ وهديناه النجدين ـ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .. » وكذلك فان تعطيل ارادة الانسان الذي عاتب فيه والدي اللاهوتيين الذين لا يسلمون للانسان بأية ارادة ، فهو اشد ظهورا في الافكار والفلسفات التي تحيل الانسان في تحليلاتها مكبل القدمين بسيور المحيط و (بالخاصة) وسائل الانتاج . ولكن يبقى فرق ظاهر بين الحالتين من حيث ان اللاهوتي هذا لا يقطع السبيل امام لاهوتي اخر للاعتقاد بوجود اختيار حر ومستقل للانسان ويجعل القضاء والقدر في المرتبة التالية من التأثير . وبفرض انه نوى قطع سبله فهو عاجز عن ذلك لانه لا يملك القدرة على سد السبل وليس في منهجه أيضا ان يصل الى الحكم ، والغالب على حال اللاهوتيين انهم يلتزمون العزلة وقلما تدخلوا في شؤون الدنيا فينحصر اثرهم في القول والكتابة ، وعلى العكس من ذلك فان المفكر المادي اذ يخضع الانسان الى تأثير جلود الحيوان والمناجل يتوجه بكل قدراته نحو امتلاك السلطة والوصول الى الحكم وبمجرد احكام قبضته على الحكم فهو يفرض طريقته وحدها شارعا للمجتمع كله بمثقفيه وأميه الا اذا جاءت فئة اخرى اقوى منه فزعزعت اركانه . ومن غرائب الامر ان اللاهوتي والفيلسوف المادي ، كل في طريق قناعته وعقيدته ، يفرض الحج على الناس : فاللاهوتي يطلب زيارة مكة أو القدس ، والمفكر المادي يأخذ الناس الى المزار المجلل الذي يضم رفات واحد من رواد المادية ، على ان اللاهوتي يعتبر اقل كلفة من جملة وجوه بقياسه الى المادي فانه لم يحسب عليك زيارة قبر النبي فرضا واجب الاداء وهو في مراتب القياس يقع مقابل مزار ذلك الرائد المادي ، أما « بيت الله » الذي يطوف به الحجيج فهو فوق المزارات وتوابيت الاموات ولا ينقص أحد شيئا من كرامته بالتمسح فيه والدوران حوله كما ان السجود لله في الصلاة لا ينتقص من أحد ثم ان للحج شروطا صعبة من دونها لا يصبح فرضا

على أحد وعند تحقق شروطه لا يستطيع أحد ارغام أحد على الحج بحجة حصول نصابه ، وللحج موسم معين في السنة يؤدي فيه ولكني اسمع أن مزارات الرواد الماديين العظام يحج اليها على مدار السنة ثم يقال ان (عبادة الفرد) لا وجود لها في المادية .

ظاهرة زيارة مقابر رواد المادية من جانب متابعيها الماديين على الصورة القريبة من نوع عبادة وتنقض كل انكار لعبادة الفرد ، واحدة من أشد المواقف الذاتية وضوحا وتعبيرا عن عبادة الفرد التي لا تقبل التأويل ، واعتقد ان جانبا من دوام عبادة الفرد هذه ترجع الى المصلحة الذاتية لؤلئك المتنفذين الماديين الذين يفرضون حرمة ذواتهم على الناس متسترين وراء الاحترام المبالغ فيه لضريح الموتى لانهم خلفاء اولئك الموتى وورثة تراثه واعتقد جازما ان اماما شديد الرضا عن الذات اذا صار وارثا وخليفة فانه بسبب من تأكيد احترامه لنفسه ينقلب الى التقليل من توقير الميت لان جانبا من التوقير الذي هو لايق له يذهب الى الميت فيبدأ نداء فضح عبادة الفرد بزيادة الارتفاع والحرارة بالمقدار الذي يحقق تنقيص مقام الميت وواضح ان الشخص الحي لا يشمله ذلك النداء فلا تنزل درجته بل على العكس من ذلك فهي تصعد . من حق القارىء ان يسأل انه لما كان غرض ذلك الامام المادي الحي هو في كل الاحوال حماية وزيادة حرمته فكيف نسميه « ذاتيا » على حين يكون هو دوما مهتما بالمصلحة وهي مادية وليست ذاتية : اقول ابتداء ان هذا الشخص الحي اذا لم تكن نفسه « جوعان سلطة » وأسيرة السمعة والشهرة فما من مصلحة مادية له متوقفة على تلك الافتعالات : انه مسيطر على ما يزيد كثيرا عن حاجاته المادية فلولا ان ذاته تطلب الزيادة فأن ظرف جسمه ورغباته المادية لا تتسع لاستيعاب مادياته المركومة : فالكأس اذا امتلات لا تحوي المزيد بل ان الاسد والنمر اذا شبعا لا يصيدان قنصا جديدا . ومن الضواري ما هو كالذئب يفتك بمئات الضحايا فتكون طبيعة الفتك في هذه الحالة هي الغالبة وليست المصلحة . فاذا كان هذا الرائد الحي بحسب مطاليب « المادية الموضوعية »

يشبع رغباته المادية دون ان يسمع نداء الرغبات اللا مبررة لنفسه النهمة اذا لارتاح وأراح بشكل أسرع وأسهل • ثم ان جميع المقررات من هذا الشخص الرائد ، ما كان منها لادامة عبادة الفرد أو لفضحها تصدر من ذاته فلو كانت آلة من الآلات في موضعه لما كان منتظرا ان تدخل حسابها الخاص في الموضوع لانها لا تملك ذاتا تطالب بتطمينها • هذا من جهة « ذاتية » موقف الفرد الذي يرتاح مرة في ادامة واطراء مقام الموتى ومرة اخرى في تنزيله ، أما موقف الغالبية الساحقة للناس الذين يرقصون على انغام نايه فان (ذاتية ولا موضوعيتهم) في كل الاحوال ظاهرة كشمس الضحى فسواء كان بسبب الخوف أو العقيدة أو الخديعة فان تراقصهم يرجع الى الذات لا الى المصلحة الحقيقية ، وحتى بفرض أنه يرقص بدافع من الجوع حيث تدخل مصلحة الشبع في الحسابات فان دور الذات غير منكور لان قرار (الرقص بالاجر) يصدر من الذات وليس من النقود • (الرقص المأجور) الذي يقوم به الانسان ليس كتراجح كفة الميزان صعودا ونزولا شيئا آليا وحتميا من حيث ان الانسان يبيع الرقص بالنقد حسب تصميم محدد ومن الافراد من لا يرقصه فلوس الدنيا كلها • ان اكبر نموذج في القرن العشرين من لا موضوعية موقف الانسان المنحاز الى المادية كان موضوع (ستالين) اذ دامت عبادته لحوالي ثلاثين سنة ، ثم في مدى ساعتين انحدر من فوق المنارة الى قعر البئر : اتحدى اي انسان لا يسخر عقله اذ يقول ان كلا الموقفين من عبادته ورميه في البئر كان موضوعيا وعلمانيا وعقلانيا • انك تعلم بدون شك مثلي واحسن مني ان كلا الموقفين كان فقاعة القلوب والدخائل بلا ادنى قربى مع الموضوعية فانه مرفوض حتى من عقل المجنون ان يكون الشيء الواحد اسود ابيض معا ، فواضح ان الملايين التي كانت ترقص في الحالتين انما ارتاحت الى ذلك التقلب [چقلبة] عن سبيل الذات الممسوحة المحكوكة • ولم ازل اذكر ، بعيد الحادث ، ان واحدا من اكبر معتمدي الامية في الشرق العربي ، وهو كردي ، قال في تبرير الحدث بلا أدنى خجل ان ذلك عبارة عن اغناء الماركسية فلما سمعت كلامه في الراديو

لم املك نفسي عن قولي انه اذا كان هذا اغناء فكيف يكون التفليس ياترى !! واقول اليوم اذا كانت الماركسية لا تفلس بأحداث مماثلة فلا مهرب من ان يفلس الشعب ، واذا كنا نتزعج من افلاس الشعب فلا أقل من ان نسكت عن الاغتناء بمثل هذا التعري لان الشعب يفلس مجددا في كلام مقلوب مماثل .

قلت واقول اني ادمت الفكر طويلا وطويلا للعثور على سبب له من الخطورة ما يحمل المفكر المادي على استمراء تفليس دور الانسان في جنب دور المادة .! نعم وبلا شك ، اعلم ان بناء فلسفة ما على اساس مادي لم يخالطه من حيث الاساس اي شيء لا مادي في تفسير نشوء الحياة وبعدها الارادة فالعقل وبقية خواص الانسان ، يطوع فكر المفكر الى « صداقة المادة » ويمهد السبيل امام قناعته بأن أي شيء يحدث أو يظهر أو يختفي في العالم المادي اللامتناهي كله ظواهر مادية خالصة ولا حاجة به الى مخالطة قوة لا مادية لفهمه وتقبله . وهذا التوليف الذي هو مقدمة اضطرارية للايمان بالمادة ، يتسلل بالفكر رويدا رويدا للانتهاء به الى تغليب المادة وسلطانها على كل شيء في العالم بعد أن تم تغليبها على قوى الغيب .

لقد وجدت بين العلماء الماديين الذين لم تكن لهم علاقة بالماركسية والفلسفة المادية من قال في صدد الدفاع عن المادة والايمان بها ان نشوء الحياة والارادة والانسان وسائر الاحياء لا ينتقص شيئا من مقام المادة ولا يضيف ذرة الى وزن العقائد اللامادية والغيبية لان غاية عمر « البشرية » بضع مئات الوف السنين ومجمل عمر « ذوات الحياة » بضعة الوف ملايين السنين ، والانسان وسائر الاحياء يعيش على هذه الارض أو بضعة اماكن اخرى قليلة العدد ضيقة الرقعة في هذا العالم الذي لا ابتداء له ولا انتهاء فاذا حذفنا هذه المقادير الزمنية لعمر الانسان والاحياء وهذه المساحات المكانية للارض وعدد محدود مثلها من مواطن الحياة ، حذفناها من ازلية الزمان وابديتها ومن لا نهائية الكون لا يحصل نقص في الفكر الذي هو مادي صرف لانا نكون

حذفنا من البحر قطرة واحدة فقط : ولو تصورنا اننا نقيم هـذه الدنيا قبل حصول الحياة والعقل والارادة أو أخرنا التقييم الى ما بعد انقضاء هـذه الاشياء كأن تقضي عليها قنبلة نووية ، وذلك تصور مقبول ، ففي كلتا الحالتين تبقى فقط المادة الميتة بلا روح ولا عقل هي والدساتير والقوى والخواص الازلية والابدية ويصبح وهما هذا اللغط والجدل حول سر نشوء الحيـاة وطبيعة الوعي والارادة وكونهن مادية ام لا مادية ، ويكـون الهاء النفس بالبحث في وجود الخالق والقوى الغيبية الخفية لا مكـان لـه في صفحـة التحليلات ويتلاشى من ذات نفسه • الخلاصة ان هذا النمط من التفكيـر المادي البعيد جدا من الماركسية هو مستغرض الى حد خدع الذات وتغليطها ضد الظواهر التي تمرر شبح (اللامادية) بذهن الانسان فكأنه اشترى بطاقة يانصيب ضد وجود الخالق وعلى تفاهة ظاهرة العقل والارادة والحياة • انا لا انوي هنا التصدي لدحض مثل هـذا التفكير لاسباب كثيـرة لا استطيـع تعدادها فضلا عن بيانها وكان قصدي من الاشارة اليه تبليغ القارىء عـن وجود طرائق كثيرة للتفكير المادي التزمت ابطال الذات والنفس والوعي ومن بينها ما بلغ ايمانه بآلية العالم ان يعتبر الماركسية فلسفة ميتافيزيكية • ويتضح لك بهذا كيف أن استئناس عقيدة الانسان بأن المادة هي الاساس والفاعليـة وانها هي « كل شيء » ينجر من ذات نفسه الى حجب الاعتبار عن الظواهر والقوى التي لسن مادة خالصة فيعتبرهن من ظلالها .

هذا الانزلاق العفوي للفكر المادي ، عموما ، نحو تنزيل رتبة الانسان دون مقام المادة الميتة ، ينقلب الى نشاط ارادي مقصود حين يشتبك الفيلسوف المادي مع فلسفة ترد طاقة الحياة والفكر والارادة الى مصدر غيبي • اعتقد ان التخوف مـن فكـرة « الثنائية Dualism » وما يترتب عليها من آثار في السياسة والاقتصاد والاجتماع تدفع الفيلسوف المادي الملتزم بالسياسة الى ابطال الثنائية عن طريق تنزيل مقام الانسان وقابلياته التي جهة اللامادية فيها ملحوظة الى ما تحت سيطرة المادة ودساتيرها وذلك لان الثنائية تستمد قوتها ،

بل وجودها ، من خواص الحياة والوعي والارادة ، فاذا امكن قلب هـذه الاسس القوية للثنائية الى ظلال المادة فان الغيب والميتافيرزيك ينفل اعظم اسلحتهما في النزال ويصبح البشر نفسه خادما دائم الترقب لاوامر المادة فانه بعد صيرورة تلك القابليات المميزة ظلالا للمادة لا يبقى من البشر غير جسده المتخلق من المادة المجردة ، ونعلم كم يصبح هذا الجسد قبيحا حين يموت • واظن بيني وبين نفسي ان الفلسفة المادية قد جاملت الانسان واستقت منه كثيرا من منظور حساباتها هي ، فانها اذ نصبت المادة (الاها) وعزت المعجزات اليها والى قواها الفيزيائية من (كهرباء وجاذبية وحرارة وذرة •••) فقد اعتبرت الانسان (نبيا) بنصبه أقوى الخدم للمادة •••

ان اعتلاق الانسان وانشغاله بالموضوع الذي يحوز اهتمامه هو أمر ملحوظ في طول الزمان وعرض المكان فتجد في تجربتك اليومية ان المسلم المعتني باستيفاء اركان العبادات تركبه الوساوس حتى انه بصعوبة بالغة ينتهي من وضوئه والعلماء انفسهم ينشغل كل منهم بمادة اختصاصه فيعزو اليها خطورة متميزة حتى ان اقوالهم في هذا الميدان متباعد بعضها عن بعض حتى يبلغ حد التناقض ، وسنلتقي فيما بعد بنماذج نفهم منها ان ناسا من العلماء والاذكياء بحسب الوضع الذي يجد نفسه فيه يختلف حكمه في الاشياء المتماثلة ، والحقيقة هذه في ظاهرها تبرهن على تأثير المحيط ولكنها في الواقع توضح دور (الذات) اكثر بدليل انه اذا وضع مكان هذه الذات عقل الكتروني لكان حكمه في الاشياء المتطابقة واحدا لانه لا يملك ذاتا تكثرت للمحيط واقول من باب زيادة التوضيح ، لو كان العقل الالكتروني قاضيا لما فرق بين علي ودارا ولكن عليا ودارا خليقان ان يلتزما جانب الصديق والقريب ، ويلتزما الغريب في مقابل العدو •••

فاذا ، حسب رأيي ، ان خوف الثنائية يدفعهم الى زيادة الغرق في المادية حتى يصلوا الى حيث يتم الاقرار للحياة والوعي والارادة بالمادية قدر الاقرار بها لقوة الجاذبة وضوء الشمس سواء بسواء •

م نزاوية تفكيري لا دخل لي في الحوافز التي تخلط الخوف والطمع في تحليلات الفيلسوف والمفكر المادي وتقلب فيها الهدف السياسي والاقتصادي الى برهان فكري : انا لا انوي ان أسمح لخوف الفيلسوف المادي من ثنائية العالم المسلم والقسيس المسيحي والمفكر المثالي بتعكير صفاء نظري والزامي بتصديق الاراء غير المبررة، فلقد قررت مـن زمان بعيد انه اذا كان تفسير الكون واحداثه وظواهره يحتاج عشر قوى وعشرين علة وليس واحدة او اثنتين ، ان اقر جميعها بلا تردد ، اما اذا ثبت بالتسبيب الجرىء المعلل المبرهن ان العالم وما فيه انبعث بذاته وبلا تدبير وبالصدفة العمياء ثم يدوم كذلك او لا يدوم فان لي في ذلك الحال ايضا دماغا وقلبا يمكنني من ان اضيف هذه الحقيقة ، اذا كانت حقيقة ، الى الحقائق الاخرى التي استوثقنا منها • ومع هذا اقدر ان اقول ان المفكر المادي من اي جبهة أو جماعة أو مدرسة كان ، لا حق له مطلقا أن يحمله خوف الثنائية على تنزيل مرتبة الانسان الى ما تحت قدم المادة الميتة او انكار الدور الاخطر والاكثر استقلالا لطاقة الحياة والعقل والارادة في احداث البايولوجيا والاجتماع والتأريخ ذلك انه اذا كان في اول بناء فلسفته قد عزا كل طاقة فيزيائية وغير فيزيائية مع كل الاحداث والتطور والوجود والانقضاء ، عزاها الى العامل الاوحد والمصدر الاوحد الذي هو المادة دون ان يعترف باي مصدر اخر او يترك منفذا لوجود الخالق والقوى الغيبية الميتافيزيكية ، اقول مادام الامر كذلك في فلسفته المادية فلن تلحق ذرة من الاذى بوحدانية المادة ولا يحصل خرم في نظريته اذا رد جميـع التطور الاجتماعي الى عامل « العقل » الاوحد ولم يمنح اي اعتبار للنفط والحديد والعلج ••

أرجو ان تترك المفكر المادي لبضع دقائق : ربما كان غريبا حقا ان يكون دفاعي عن دور الانسان وفاعليته بما املكه من حرارة الايمان ، راجعا في المقام الاول الى حفظ حقوقه المختلفة عبر مثابرتي على بيان الحقائق فانا اعلم ان الجهة الفلسفية التي تخضع الانسان للمادة والمحيط الى حد ان تضعه في المرتبة

الثانية [ولا مرتبة ادنى منها] للذاعلية ، هذه الجهة الفلسفية تقيم نفسها مقام المسيطر على توزيع النعم وصاحبة الحق في سلب او اقرار حقوق الانسان الاساسية والسماح أو المنع لانتقاد وعدم الرضا بمقراراتها واعمالها هي وتلك نتيجة نراها بعيوننا ونفهمها بعقولنا منذ عشرات السنين . يأتي الفيلسوف المادي عن سبيل اقامة الاسباب المادية ومؤثراتها حول ارادتي الحرة فيجعلني وترا متناغما مع سيمفونية المحيط ثم يحيلني الى قطرة ماء في بحر المجتمع ويفرزني من ان اكون فردا مختارا من بين جماهير المختارين ، فلو انحصرت المشكلة الفكرية في اطار الفكر المحض دون ان ينجر الى نقصان انسانية جميع افراد المجتمع وانجمت من المشاكل الاجتماعية ما قد ينجم من حقيقة زيادة حجم المشتري على حجم زحل لكنت احمل همها فقط قدر همي في حقيقة مجردة بلا نتيجة وما كان خوفي من انطفاء ذاتي وبطلان حقوقي يسلمني الى نزاع مستمر مستعر : اذا كان اسمك « عزيزا » وحين شروعك في السفر من حلبچة الى عبابيلي حصل سهو في اسمك فقيل لك تفضل يا أخ عبد القادر فالسيارة جاهزة ، قد يكون حصل لك شيء من عدم الارتياح وربما امتنعت من كلفة تصحيح السهو ، ولكن اذا كان السهو في صيغة رسمية [كأن يسجل اسمك « عبدالقادر » في شهادة الجنسية] فما لم تصححه ما امكنك الحصول على ميراثك .. يحرمونك الراتب .. يحجبون جواز سفرك .. يرفضون ولدك في المدرسة ....

ان الحرص على الحقيقة ، وهو احساس ملؤه الشرف في الانسان ، يصبح حرصا على الشرف نفسه في الاحوال التي ترتبط فيها الحقيقة بالشرف. لاحظ ، انه حيثما تصبح الفلسفة المادية التي تنزل بمرتبة الوعي والارادة هي القانون والآيين ترى ان جميع حالات الحبس والتضحية السياسية التي تعتبر في بلاد اخرى سببا للفخر وانتشار الصيت والمروة والفروسية ، ترتد كلها الى جريمة وافتضاح وهلاك في ظل المادية ، وفي كلتا الحالتين ، اي سواء في ظل

المادية أو عقيدة مخالفة لها ، كانت نية مقدسة وظيفة من احترام البشر وضمان الحقوق وخدمة الجماهير هي حافز اولئك المضحين .

كذلك من زاوية احترام الذات الانسانية والارادة والعقيدة والحقوق المشروعة ، لي نقد مشوب بأقصى عدم الرضا للمقولة الشائعة المجللة بالاطراء التي تقول ان البشر اثمن رأسمال : انا اعلم ان هذه المقولة في مبدأ أمرها قد برزت لتحريك عصب الاحساس بالذات لدي سواء الفقراء والمساكين حيثما كان ما يسمى بالحد الادنى لحقوق الفرد والمجموع الاجتماعية لم يكن بلغ حد الضغط على وعي واحساس المتفكرين ، لكن تلك الازمان قد غابت من كل آفاق العقيدة والنضال والتطور والتقدم الاجتماعي حتى اصبحت من قبيل الاشياء الاثرية ، بل المفروض في المواطن الاشتراكية التي تشيع فيها هذه المقولة ان الحكومة والسلطة هي ملك للطبقات التي صيغت المقولة منذ مئة سنة من اجل خاطرها وبنية مجاملتها وتشجيعا لها ، ان يكون دورها قد انقضى تماما فانه سينهض هذا السؤال : كيف يسوغ للانسان ان يقول عن نفسه انا رأسمال ؟ وبافتراض اننا سلمنا بانه في فرنسا والمانيا لم تزل البروليتاريا بعيدة من التمتع بحقوقها الكاملة فجاز بالالتجاء الى التأويل المثلوم لنقول ان اكثرية الشعب فيها محتاجة الى هذه المقولة ، فكيف ببولونيا وبلغاريا حيث تحكم البروليتاريا ؟ هل يجوز للحاكم ان يسخر من نفسه فيقول انا اثمن من جميع رساميل بلدي ؟ ما أغرب رجلا يدير عينه في اثاث بيته ثم يقول بعد التفكير : انا من بين البوفيه والسجاد والمواعين .. اغلاها سعرا ! أو أن فلاحا يأتي فيقارن ثمنه بثمن الثور والمعز والغنم والحقل فيقول بارك الله في وجودي ! أنا اثمنها جميعا !! عندما يكون الانسان في واقع الامر (رأسمالا) كما كان العبيد في ماضي الزمان يعرضون في البيع والشراء ، كانت هذه المقولة قيمة جدا ونافعة للانسان ولكنها في هذا العصر أصبحت كألوف الاشياء الاثرية النافعة التي ينقضي اوانها ، اصبحت عدوة للانسان لانها عوضا عن ان تمدح في الانسان صفة رئاسته ومالكيته تنزل به الى مستوى رأس المال أو ، مع

شيء من (الكذب) ، ترفعه قليلا عن مستواه • ويأتي الكذب هذا واضحا جدا لان المجتمع الذي يردد كلاما كهذا لا يرفع الانسان في التطبيق ابدا فوق مستوى الالات من حيث انه اذا اخطأ في شيء أو كسر حاجة سرعان ما يؤخذ بلحيته وعلى عجل تام يتم الاعتراف بعقله ووعيه وارادته بنية الزامه بالتعويض فيقال له : انت لست ثورا او كوكاكولا أو بساطا أو جبنا حتى يتم التجاوز عنك ، ومهما قال مرة والف مرة يا جماعة انا اثمن رأسمال لا يسلم له أحد • واضح اني لا أرمي من وراء هذا المثال الى غض النظر الجزافي من المخطىء والكسلان والمتلكىء فهؤلاء يحصل اليأس منهم بالمرة اذا علموا انهم لا يؤاخذون بأخطائهم ، اقصد ان اقول ان هذه المقولة معطلة من كل وجه ولا اعتبار لها قطعا • فاذا لم تتعطل يكون فاعليته على حساب الانسان من حيث انه اذا صار رأسمالا يؤول الى مادة من مواد السوق والبيع والشراء • ولعلك تعتقد معي انه اذا لحقت الانسان تسميته برأس المال ، يتصدى له مالك ويطبق عليه بيده فيعامله بحسب ما يتراآى له فقد يجوعه او يسمنه أو يرقصه دون ان يكون لأثمن رأسمال هذا حق الاعتراض • والان : كما ان المفكر المادي السياسي من الجبهة الثورية يبلغ الناس ان رضاهم باللبرالية عبارة عن الاستمرار في قيد الرأسمالية رغم ان اللبرالية كانت في زمان ما أصلح الانظمة السياسية ، اقول أنا ايضا لانسان هذا العصر ان رضاك بمقولة كون الانسان اثمن رأسمال ينصب عليك فخا ابديا لانه في ميدان هذه المقولة لا توجد مرحلة ودرجة وعصر كما كانت موجودة في اللبرالية (باعتبار الاشتراكية الماركسية نظاما ابديا في نظر القائلين بها) ولهذا فانك مالم تنقذ نفسك من قبضتها ستبقى أحقر رأسمال (اقولها مرة اخرى أحقر رأسمال) • حقا ان المقولة افلست في حساب كل البشر ولكنها في رأي من يخلعها على غيره ستبقى مقولة غنية مجزية حتى يوم يعثر فيه على فخ أضمن • اما من حيث كونها ذاتية ام موضوعية فانه اوضح من الواضح ان اكثرية البشر ترفض مثل هذا الفخ ما لم يتم تعمية بصيرتها فالعبد لا يرضى بعبوديته الا من باب

الاضطرار . اما الشخص الـذي يخضـع لها الناس فلا يحاسب بالذاتية والموضوعية لانه في موقفه هذا انتهازي ومضلل ولعله ان يكون جلادا أيضا .

ارجع الان الى سالوفة (الثنائية) ومخاوفها .

رأيتني في ما سبق من كلامي قد ذهبت الى ان الفلاسفة الماديين في اوائل تصوراتهم وتحليلاتهم سواء بسبب اغراقهم في الانبهار بالمادة وبسبب الخوف من تسلل فكرة (الثنائية) الى فحوى المادية مالوا بالضرورة الى تنزيل مرتبة العقل والارادة ، فلما وصلت جبهتهم الى دست الحكـم وجدت مصلحتها في بقاء الانسان عند المرتبة المخفضة نفسها خشية ان يداعبه فوق المنصة العالية لل (الاولوية والفاعلية والمالكية والرائدية) الطمع في حق النقد وعدم الرضا والتكذيب وتغيير القناعة وما أشبهها من خمائر التمرد فمما لاشـك فيه ان الانسان المالك للارادة الحرة يصعب ويتراخى رضاه اكثر من انسان عالق في قدسية النظريات . ان الانسان الطليق خليق ان يكون غارقا في الملذات فيطلب المزيد ، وقد لا يرضيه المزيد فينثني الى اللامبالاة وترك اللحية ولبس الرث و (الاتكة) والسخرية بالدنيا . لكنه اذا كان كالصوفي ، تعتريه القشعريرة من خوف تجاوز ما في النظرية والعقيدة من قدسية فقد امكن بسهولة عن طريق كلمات مذاعة بالميكروفون وسطور من كتابة الحيطان مذيلة بامضاء قائده ان يمتثل كالجندي المكلف لاوامر من هم ارفع درجة منه : فاذا جاع وعرى صدق قول من يقول انه مضح من اجل المصلحة العامة ، واذا شبع واكتسى تباهى بأنه ما من نظام وبرنامج يساوي قانونه المقـدس في حبه للبشر . اني اعتقد ان الخوف من عدم الرضا والتمرد للجيل الذي جاء بعد منتصف هذا العصر حمل رؤساء الحكومات الثورية القديمة الى التوجه نحو سياسة التعايش السلمي لان جماهير تلك البلاد طال بها الزمـن في مطالبة الدولـة لها بغض النظر والمسامحة وتجاوز الذات والتضحية والرضا بالموجود حتى آل الامر بها الى الميل نحو عدم الرضا وعدم التسليم فان لكل طاقة تحمل حدودا والانسـان

مهما تم تدجينه وتأنيسه فهو يبقى انسانا ولا ينقلب بهيمة فمن شأنه أن ينفجر به دخيلته المضيق عليها فاذا علم اولئك القادة ان سياسة الانفتاح والتعايش تزيد في سرعة انبعاث الضجيج من سياسة مضاعفة الاسوار بادروا الى الانكفاء نحو هذه الاخيرة لانهم في كل الاحوال يهتمون باستمرار سلطتهم اكثر من أي شيء اخر . ولا فرق بين ان يكون التنافس على السلطة يقيم الصراع السافر في صفوفهم أو ان يكون الخوف من المطالبات الجماهيرية يحملهم على محاولة التبرير وتعصيب العيون وثلم النفوس وتضليلها وتبديل الفلسفة واعمال مماثلة فهم من الوجهة التي ندور حولها هنا لا صلة لهم بالموضوعية بل انهم حتى في الذاتية ينتمون الى الانتهازية كما أسلفت .

في ضوء السطور التي قرأتها خلال الصفحتين الاخيرتين تجدني اذ أقيم الوزن لاثر الخوف من الثنائية في تحليلات الفلاسفة الماديين فان موقف القادة السياسيين المنتحي الى الانتهازية وليس الى شيء اخر ، موقفهم هذا لا يقع ضمن خوف الثنائية لان حافز الانتهازية لا يتوقف على حقيقة الاشياء وصدقها وكذبها بل انهم اذا علموا أن دوران رحاهم مرتبط بفكرة الثنائية ومتوقف عليها وعلى شيوعها بادروا حالا الى جعلها عقيدة بل دينا : ان حسابي هو مع المبتدعين المتجردين من المصلحة من بناة النظرية المادية الذين وجدوا قوة نظريتهم تكمن في تقديم دور المادة وفاعليتها ولم يكن يومئذ حافز المصلحة الشخصية وصيانة السلطة موجودا او مخلوقا بعد حتى نقول ان هدف المنفعة والشهرة جعلهم ينزلون بمرتبة البشر فعلى اوان بناء الفلسفة المادية فهي ، مثل نضال الاكراد في هذا العصر ، لم تكن تستتبع الا قلة الراحة للمنشغلين بها . فاذا اراد قارىء من قراء هذا الزمان ان يستفيد فكريا من جراء الدقة في هذه الكتابة عليه أن يسلح نفسه بجرأتين في موقفين : احدهما اذ يعثر على خوف الثنائية من طرز تفكير وتصور الفلاسفة الماديين القدماء ويرى ان هذا الخوف قد بالغ في تهريب خطورة المادة ووزنها الى حظيرة فلسفتهم وثانيهما حين يتضح له كيف ان القادة السياسيين واصحاب السلطة

في جبهة الفلسفة المادية يثابرون علـى اطراء دور المادة بهدف حفظ قدراتهم وتقليل حق عدم الرضا من غالبية الشعب حتى ان زيادة المثقفين مكنتهم مـن زيادة نشر الكتابات الصديقة للمادة بالقياس الى ما كان الحال في الماضي .

بعد هاتين الجرأتين الهامتين تأتي ملحوظة اخرى تزيد من صعوبة اعادة النظر في النظرية وهي خلو ظهر هذا الطرز من الكتابة من المعين والسند بحيث انها اذا كانت قد اصابت كبد الحقيقة لا توفر لاحد رقاقة خبز على العكس مـن الانحياز الى الجهة الثانية على النحو المشهود في اكناف الدنيا . ولكن مع ذلك فلا أحد يتضرر من الكتابة المفتقدة للدعم واذا كان فيها نفع فلا حصة فيه لصاحب الكتابة وذلك هو علة خلو هذا الحوار مع القارىء الكردي من حبس اللسان والتلجلج ثم اضيف الى ذلك ما يلي : القارىء حر في تقدير ما يكون من نفع وضرر نتيجة اعادة نظره في المعتقدات وله بعد ذلك ان يقرر ما يقرر في المسألة ولكن فليعلم من شأنه انه بعد فقده لارادته وحرية عقيدته ينقلب في نظـر المدبرين لشؤون الفلسفة الى (شيء) ويتم التعامل معه علـى انه شيء لان الانسان الذي هو في اساسه مخلوق ذو وعي وارادة لا يدجن لرغبات صاحب الغرض الشخصي قبل أن يتهرى وعيه وتسوف ارادته وبعد ذلك ينزل من مرتبة الانسان ، اما صاحب المصلحة الذاتية فهو يتبع في تعامله مع احوال كهـذه المثل الكردي المشهور : (الزموا ذوات الارجل فان فاقدات الارجل ملكنا) فهو بعد مصادرته عقل الشخص وارادته يكون ماله وقابلياته بل حتى روحـه ملك يده . فالشاب المثقف الذي يرتاح في ان يكون منفذا بلا اعتراض ولا تلكؤ لامر نازل عليه ممن هو فوقه لا يكون له اي امكان للاخذ بالثأر مستقبلا الا بأن يخدع شباب الزمان اللاحق ويستذل فكرهم ويمتطي ذواتهم يوم يصل بشخصه الى الحكم والسلطة .

النزاع بين (الانسان وما حوله) كما ترى ذو منطلق فسيح .

على اي حال ، ان كلامي الان موجه للنظرية نفسها لان اصحابها الميتين لا يأتون اليوم فينحنوا من فوق برزخ الحكم والقدرة الى سماع كلام كهذا ،

ولو كثر سامعو قولي لازداد المشاركون في القدرة وحرض على الحكام غالبية المؤتمرين بأمرهم • فما دامت الحال هي هذه [في ان اصحاب النظرية الاصليين ميتون] فمن حقي القول بانه لا يسوغ لخوف الثنائية أن يئول بالماتيريالزم الى التوفز من الاعتراف بالدور التطويري العديم المثال للانسان في التحول الاجتماعي والتأريخي والاحداث • الفلسفة المادية مثل غيرها من الفلسفات تؤمن بان المادة الميتة نتيجة التأثير والتأثر على مدى مليارات السنين بحسب اقتضاء خواصها والقوى الطبيعية الموجودة فيها وصلت كيفية كان من شأنها ان تشيع فيها قوة الحياة « الحيوية » فتصبح مادة عضوية ، وبعدها خلال مليارات السنين تدرجت هذه المادة الحية صعودا عبر التطور البايولوجي حتى بلغت مرتبة الانسانية ومازالت تتطور الى امام : يا ترى اين مكان الثنائية في هذا التحول الصاعد المتقدم دون ان تكون قد اختلطت به اية قوة غيبية ؟ بقى تعليل الفرق المحير الغريب بين المادة الميتة والحية وبين المادة الحية والعاقلة ! لا يتسنى تعليل هذا الفرق في اطار التحليل المادي باهماله أو تنقيصه او باعتباره أمرا واقعا أو بحسبانه ظلا للمادة من طرف اللسان • سواء شاء الفكر المادي أو أبى فان الحيوية والوعي والارادة [انا اختصر القول اذ استعمل هذه الكلمات الثلاث « الحيوية ــ الوعي ــ الارادة » والا فان ذا الروح وذا الوعي فيهما معجزات لا تحصى] هي في اي تحليل او تصور كان معجزات ولا تنسلخ من اعجازها ان يتم عن طريق فنون المنطق والذكاء احتسابها نتاجا عاديا للمادة كطاقة الكهرباء والاشعة الكونية وظواهر الفيزياء والكيمياء • ان الخواص الموجودة في الكائن الحي والكائن العاقل سواء ردت الى قوة غيبية او الى اختلاط وامتزاج المادة وخصائصها ستبقى اغرب الظواهر واشدها عسرا على الفهم في هذا الوجود مع ملاحظة أن اولئك الذين يضطرون بسبب قصور التفسير المادي ان يردوا تلك الظواهر الى قدرة وعلم الخالق الذي ليس لعلمه وقدرته حدود يلجأون الى قوة لا تعجز تلقاء اي شيء وان كانوا في نظر الماديين قد هربوا بروح انهزامية من ميدان حقيقي الى ميدان

وهمي[1] . خلاصة الكلام ان الفيلسوف المادي مهما يرفع من مكانة المادة ويزد من اعتبارها فسوف تبقى مواجهة المعجزة المتمثلة في الكائن الحي والكائن العاقل محمولة على عاتقه ويستحيل عليه أن ينفصم منها . ومما يزيد كثيرا من قلق موقف الفيلسوف المادي انه على مدى ترقب علماء العصر للموجودات بالاجهزة التي ترصد حتى الميكروب والذرة لم يحصل قط أن تنبت قوة الحياة في واحدة من الذرات فتصبح مادة عضوية وهذه حقيقة يتشجع بها اللاهوتيون فهم يقولون اذا صح ان المادة من ذات نفسها انقلبت الى كائن حي فكان خليقا بها ان يحصل لها ذلك في عصرنا هذا ولا سيما انا نعلم مدى قدرة العلم في هذه الايام على توفير الشروط الضرورية لبث الحيوية في المادة : لقد خلق العلم عناصر لم تكن موجودة في الطبيعة فلماذا لا يكون العلم والطبيعة مجتمعين قادرين على احياء ذرة ميتة واحدة ؟ فاذا كان هذا الاحياء غير ممكن حتى بمعونة من العلم الحديث فكيف يسلم العقل بان الصدفة العمياء من ذات نفسها يسرت للمادة الباردة أن تشيع فيها الحياة على حين فجأة ؟ انا لا اريد قطعا في كلامي هذا ان اقنع الملحد ليؤمن فلا مصلحتي موقوفة على ايمان الملحدين ولا الملحد متهيء ان يميل ناحية الايمان بكلام أقوله ، ولا ينقلب اي

---

(١) والمؤمنون بالله يعزون تهمة العجز والخوف والهزيمة الى الفلاسفة الماديين الذين يسارعون ، قبل ان يستطيعوا تفسير اشتات من الظواهر تفسيرا ماديا ، يسارعون الى غض النظر ويسدلون في ظل كثيف لتفسير مادي جزافي خال من الكلفة ستارا كاذبا من راحة الفكر على اجسادهم ويروحون في نوم عميق مستدبرين خالقهم . الفلاسفة المادية لا يرضون حيال تفسير اي شيء لاسيما ما كان منه متصلا بالانسان أن يسلموا بحدوث اي حادث أو تطور بدون اسباب ظاهرة ولكنهم يرضون ان يكون الانسان نفسه وهو منبع الاجتماع بما فيه من ملايين الجهات المحيرة التي كل منها محتاج اكثر من الثورة الفرنسية الى السبب والحافز والتدبير والحصافة ، يرضون ان يكون الانسان نفسه نتاجا لانعدام التدبير . هؤلاء الفلاسفة يتخلون عن الله قبل ان يصلوا الى اسباب مغنية عن الله وهو انهزام في منتهى الجبن بحسب رؤية المؤمنين بالله .

من حال الدنيا اذا جاء كاك باپير أو مام اومر (عمر) فعبدالله او فعل شيئا اخر، ها هنا اقول مع الخيام ما قاله في احدى رباعياته :

ان كس كه جهان ساخت فراغت دارد

ازسبلت چون توى و ريش چومنى

« ان الذي خلق هذا الكون فارغ من شارب واحد مثلك ولحية واحد مثلي » ان الذي اقصده هو على سبيل الحصر ان اوضح للقارىء الكردي ، حسب قناعتي ، ان معجزة الحياة وفروعها هذه لا تبطل ولا تتلاشى بالخوف من (الثنائية) ، والفيلسوف المادي اذ بدأ ، حسب تخيله ، عن طريق انكار وجود الخالق وقوى الغيب اللامادية فأحال الوجود كله على اساس واحد هو (المادة) لا يلزمه من جديد ان يسحب وراءه ووراء نظريته خوفا أبديا للثنائية وينشغل بالعراك مع شبح هذه الغول . اذا كان المفكر المادي شجع نفسه الى الحد الذي قدر فيه ان يطمئن قلبه دون ان يمرر به اي فكرة لوجود الخالق فآمن بالمادة المجردة الميتة محركا لحيثيات العالم الملىء بما لا يحصى من المظاهر المحيرة فليكن جريئا بما يكفي ايضا لعدم تصور نشوء الثنائية . المفكر المادي ظن انه قتل (الاله) ومسحه من كل حساباته فما الداعي الى ان يبعث له خوف الثنائية مجددا « فرخ اله » فيشغله بوساوس الثنائية واشباح الغيب ويدير رأسه فيصاول به ضد ريادة وفعالية وامامة واولوية ورياسة الانسان الواعي ! والذي يهلك في هذا المعمعان هو حقوق الانسان وليس شبح أو غول الغيب ذلك ان الموازنات الفكرية للمؤمن بالغيب الذي رفض منذ البداية حذف قوة (الغيب) تمنعه أيضا من ابطال خالقية الفكر والحياة في جنب المادة بل ان الشخص الغيبي سيجد في هذه المحاولة العبثية دليلا جديدا على خراب ذمة الرجل المادي في تحليلاته لان الحياة والعقل شيئان محسوسان يخرجان عن دائرة الشك المحيطة بما هو غير محسوس كالغيب فمن المنتظر ان يكون اصرار الرجل المادي على تخفيض مرتبة قوة محسوسة ومحيرة

كالعقل والحيوية داعيا للشك في هدف الفيلسوف المادي ليس فقط تلقاء قوة الحياة (وفروعها) فقط بل كل ما هو غيب أيضا لان التصدي للاشياء الملحوظة المحسوسة بالمناقضة يولد الشك مباشرة في التصدي للاشياء التي لسن ملحوظات ومحسوسات مثل ذلك مثل رجل يغالط العيون في حساب نقد مشهود كالدينار فهو اولى ان يكون مغالطا أخطر في حساب القرض الذي ليس له قيد اصلا . وكان من قبيل زيادة الاصرار على التصدي العدائي والانكاري للشيء غير المحسوس ان ناسا كانوا ينكرون من ٤٠ ــ ٥٠ سنة اصالة وصحة المصنوعات من مثل السيارة والغرامفون وآلة التصوير ويشككون في سلامتها ، وكلها اشياء صلبة وذات حجوم ناتئة كالحجر والشجر فقد سهل عليهم كثيرا ان ينكروا بكثير من الاشمئزاز كروية الارض ودورانها حول الشمس ويفندوا وجود الجاذبية لان هذه حقائق تثبت عن طريق الفحص والمقارنة والعلم والتجربة وليس اثباتها في حال قيامه كالعنب والتين محسوسا وملموسا باليد حتى لا يقبل الانكار وواضح ان الانكار لم يكن يضر ذلك المنكر بل كان أدعى الى ازدهائه بدعوى انه يتحيز في ذلك ضد الكفرة دفاعا عن قدرة البارىء . حقا انك اذا دققت وأنعمت النظر في المسألة وجدت الفيلسوف الذي يثابر في التنقص من الخطورة والصفات المحيرة للحياة والوعي ويدافع بكل قواه عن المادة وجدته في حرص المؤمن بالغيب اذ يدافع عن وحدانية الله ، فهو يدافع عن صنمه المعبود الذي هو المادة بالحرص نفسه . وهنا أيضا يتراآى للنظر المدقق ظاهرة غريبة وغير مبررة : فالفيلسوف المادي يتريث حتى يكتشف علماء الفيزياء والكيمياء والنفس والفلك ... الخ حقائق الوجود فيضع يده عليها ويستخدمها بل يستعبدها لصالح نظريته حتى انه لا يسمح للعالم المكتشف نفسه ان يستنبط من المكتشفات العلمية رأيا فلسفياً خاصا به واذا حدث أن اعلن تصورا يعاكس تصور الفيلسوف المادي يبعد

حالا من درجة الفلسفة والعلم ويعلن عـن كونه مـن خدم البرجوازية[1] والغيب والاسطورة ولا يترك في ذلك مخرما لاحتمال صحة ذلك التصور وعدم تبعيته فقد اكتفى فيه تجريمه بكونه معاكسا لتصـوره [هـو المدعـي وهو القاضي] .

هاهنا وجب ان أضع في مهوى نظر القارىء وذهنه شيئا علـى غاية الخطورة . وليست خطورته بالمقدار الذي يمكن ان يعالج بالكتابة والقول ما يتولد منها من مشاكل متوالدة ، فانا استعرضه من زاوية الفكر المجرد كما فعلت في أي استعراض اخر قمت به ، ولا اطمع قطعا من الشاب الكـردي المتحيز للمادة أو متوسط المادية أو المنضوي الى الغيب ان يفتح صدره أو يبدل دخيلته بكلماتي . على اي حال لا توجد قوة ملزمة وراء كتابتي تقـود الناس الى متابعتها ، بـل على العكـس من ذلك فكـل قـوة تكـون وراء كتاباتي هي عدوة وقد ظهر ذلك مـن كون كل الكتابات التـي تناولتني مخاصمة :

اريد ان ابلغ قارىء هذه الكتابة ان قسما من الخصومة القائمة بيـن العقيدة الغيبية والعقيدة المادية ترجع الى عدم التوافق والتآلف [اي الى العداوة] ويعود شيء اضافي منها الى مقتضى احكام العقيدتين في طلبهما من المؤمنين بهما ان يلجيء كل منهما غيره الى التخلي عن عقيدته . ولكن مقدارا ملحوظا من الخصومة المذكورة يعود الى شهية وميل (ذوات) اولئك الذين يتسترون وراء احكام عقيدتهم في انبعاث الخلاف ، فيضفون ضرام شهوتهم

---

(١) غالبية كتاب المادية لا يتوقفون لحظة في اسباغ عنوان (الفكر البرجوازي ، على الاكثرية من كتاب ومفكري البلدان الرأسمالية وهو خطأ فظيع لان ما يسمى بالفكر البرجوازي يشمل المسافة كلها بين الايمان والالحاد وبين الرأسمالية حتى حدود الشيوعية . واعتقد ان في هذا شيئا من التغافل لان التفكير الفلسفي ليس كدكان البقال الذي لابد له مـن الارتباط بالرأسمال والبرجوازية

للارهاب والاذلال والتطويع ، يضفونه الى صلب عقائدهم حتى يستطيعوا في مشعل هذه النار « الذاتية » ممارسة الضرب بالخنجر وسفك الدم واشاعة الخراب • اقلب صفحات التأريخ واقرأ السطور الدامية لمنازعات العقائد تجد شبح عدد من ضواري الوحوش خلال تلك السطور يقطعون ويمزقون ويصرعون ويحرقون ويستثيرون اصحاب الضمائر المعلولة ايضا الى الضراوة ويكتمون انفاس نظاف القلوب وعشاق السلام من الناس • والصور الملحوظة في دفاتر التأريخ تنجلي في صفحات احداث هذا العصر ايضا : في كل خطوة بالغة الضرورة للوحدة والاخوة بين ابناء الشعب تنبعث عارضة من اليسارية المتطرفة والاستعجال الحاد والتشكيك في الناس واشاعة الاتهامات تتعثر بها الخطوة وينقلب صاحبها رأسا على عقب• ولو كان جانب من هذا الشك والجرم صحيحا وجب ان تكون المصلحة العامة ومعالجة الاخطار الخارجية تسامح في ذلك بالحسنى ولكن ، على العكس من ذلك ، فان فقاعات الانفس المتشككة والرغبة في تعطيل الغير تعمل على أن ينبعث الشك والتجريم من دون سبب ، كالرذاذ النازل على وجه الاديم • اننا لم نزل نذكر ان الجبهة الوطنية الموحدة في العراق قد تبعثرت وتشرذمت بعد ثورة ١٤ تموز في وقت قصير قياسي وكان السبب كما نعلم ان احد اطراف الجبهة كسب مقدارا من القوة اكثر مما كسبته الاطراف الاخرى فدفعه حب فرض الذات الى عدم مسامحة اي فرد أو فئة أو جماعة حتى لكأن الجبهة الوطنية كانت قد تشكلت بالاساس من لصوص متعددين وصاحب بيت واحد فهو منشغل بمقاصصتهم • كان انتقاض الجبهة دليلا على اختلاف الذات والدخيلة باكثر مما كان دليل اختلاف المصلحة فانه ليس من الجائز قطعا ان الاحزاب التي كانت بحسب التعليل العلمي المادي وطنية ظيفة منذ شهرين قد أصبحت بحسب التعليل العلمي المادي نفسه مستحقة للازالة فاذا عثرت في التأريخ على نماذج مماثلة فكن واثقا من أنها هي أيضا قد تحججت على غيرها نتيجة عماية الذات ، وأقرب

مثال على ذلك هو مآسي الثورة الفرنسية فان نفسية ثوارها اكثر مـن خلاف في المصلحة عملت على ان تأتي في النهاية بنابليون نصف عفريت مكان ملك لا يملك سلطة [انا سنصادف الثورة الفرنسية في الجزء الثاني من هذه الكتابة] والذي حدث من الانفصامات واقتتال الاخوة في النضال القومي الكردي [والكلام يرجع الى سنة ١٩٧٧] لم تكن له صلة بالمرة بالموضوعية وبمصلحة الشعب الكردي ، بل على عكس ذلك ، كان نقيضا للحركة الكردية واهدافها ، وبفرض ان جزء من الخلاف المشروع والمألوف والمنتظر مقبول وجوده الا أن القسم الاعظم منه مردود الى تصميم (ذوات) المترئسين للحركة والا فالمصلحة الكردية لا تحتمل في حالها الراهن ان يتقاتل ابناؤها المكافحون ويتذابحوا بسلاح الاجنبـي • وعندما قلت (في حالها الراهن) قصدت كتـم اعتراض المعترض فقط فليس مبررا ابدا في ميدان الاجتماع والكفاح التقدمي أن تنزل قطرة دم من أحد ، والذين يريدون بحجج التحليلات الفلسفية حمل الناس على الاقتناع بوجوب وشرعية التذابح الداخلي للمناضلين هـم اناس يسكبون السموم من انياب الافاعي الكامنة في نفوسهم داخل نصوص فلسفتهم او انهم يؤولون النصوص على نحو يضمن وجود أكياس تتسع لسموم دخائلهم • لا تشك لحظة في ان جانبا كثيرا وكثيرا جـدا مـن النزاعات والانشقاقات والخلافات وخراب البيوت بين البشر ينبعث مـن رغبات النفـوس ونوع التصور والرأي والخلاف المذهبي والديني والعقائدي وما اليها مـن الاسباب « الذاتية » التي لم تكن قط ذات علاقة حقيقية وصادقة بالمصلحة ، ومن بين تلك الاسباب الذاتية يبدأ الدور الخطير للنفوس الضارية التـي تظل على أوان انقشاع غضب عامة الناس وركونها الى الموادعة ، تظل براكينها الثائرة المحتدمة في جيشانها وفورانها • استطيع القـول انه اذا كـان قد وضعت كومبيوترات مكان اولئك الذين تسببوا في المآسي عبر التأريخ أو أن الناس العاديين الذين دخلوا في النزاعات فقتلـوا وانقتلوا استفتوا الكمبيوترات فتعطيهم اجوبة خالية مـن العاطفة لاختفت ٩٥٪ مـن المآسي عبـر الزمان

فالكمبيوتر لا يدخل في الحساب صفات الجبن والشجاعة والحب والكراهية والجهالة فكان ذلك خليقا ان يمنع هذه النسبة المئوية من المصائب فلا يبقى غير ٥٪ من الحالات فيها من المصلحة ما لا يسهل الاتفاق عليه الا بعد النزاع والمخاصمة • لا تكن ابدا سهل التصديق للكلام الصادر من صاحب اللسان الذرب الذي يستطيع بالمشهيات المنسابة من كلماته المعسولة في عز الطرب ودبكات الفرح ان يصطنع الف سبب مقنع يحملك على الاشتباك في مهلكة • الوف مؤلفة من الظلمة الذين انتهت حياتهم بالدمار والفناء كانوا احرياء ان يسلموا ويغنوا لو أنهم ضحوا بزكاة من رغباتهم اللا مشروعة في سبيل حسن العقبى ، وواضح ان افناء الذات بسبب الحرص على ما يساوي عشر المصلحة الكبيرة الدائمة لا موضوعية فيها ولا التمسك بمبدأ « حفظ المنفعة » الحقيقي وما هو الا ضلال الذات وعماها • ولنا مجال اوسع للكلام في هذا الاتجاه فنقول ان كان اولئك الطامعون قد قتلتهم نفوسهم العمياء فان ملايين المظلومين بقوا مظلومين بسبب نفوسهم الضعيفة المفلولة الجبانة : انك اذ تجد الشخص من المظلومين يكاد يصيبه الشلل تلقاء اعتداء رجل ظالم ويفقد الجرأة على تحريك ساكن ، تراه بعد ذلك يدخل مع صعلوك مثله في نزاع قاتل وبروح قتالية وببطولة لا مكترثة تمسكا منه بجلد صخلة ثمنها نصف دينار • هذا الجبن الذي لا حدود له وهذه الجرأة التي لا حدود لها من الشخص نفسه ما نجما عن الموضوعية وحب المصلحة وانما كلاهما وليد الذات العمياء وليكن ان جنيا أعماها او أنها منذ أول تخلقها كانت عمياء فلا فرق بين الحالتين • كثيرا ما اردد مع نفسي : لو أن قطيع الغنم لم يكن مستسلما للذئب بحكم الطبيعة فانه يستطيع ، حين يتسلل اليه الذئب ، ان يحيط به ويتناوشه بالنطح والضغط وبأي شكل من الاشكال فيقضي عليه ولكن افتقاده لحافز الدفاع عن النفس ضد الذئب يحكم بعجز القطيع مطلق العجز عن القيام بأي شيء • ولما كان الغنم ليس ذلك المستسلم المنقاد للبشر فان كبشه يناطح الرجل وقد يقتله • لقد رأيت سكان مدينة برمتها ركبهم الخوف حتى جعلهم

كالغنم العاجز عن أي مقاومة . ويذكر التأريخ جماعة في القافلة يتصدى لهم مغولي واحد ويأمرهم بالتوقف ريثما يرجع الى القرية كـي يجلب سكينا يذبحهم بها فيستسلمون كالموتى الا واحدا منهم يقول مع نفسه : ما دامت النتيجة هي الموت فلم لا أبدأ انا بقتله فيأخذ صخرة و ... فها هنا مثل صارخ على ما يفعله بالانسان فقده للقدرة على التصميم واستعادة نفسه التصميم على الحياة . هذه الرواية المنقولة من التأريخ ان تكن غير صحيحة فان احداثا صحيحة مثلها وقعت في اماكن وازمان اخرى . فاذا اراد القارىء ان يسألني : متى ساغ استنتاج الافكار الفلسفية من أحداث صغيرة تافهة كالتي مر ذكرها وكيف يجوز ان تنسينا دلالة ظاهرة اجتماعية ـ اقتصادية مثل الكفاح الطبقي والاحداث العالمية الجسام ؟ اجيبه بانه كلما استشهدنا بالنماذج الخطيرة ساعدتنا اكثر على اضاءة دور (ذات) الانسان لاسيما في الازمان الماضية مما قبل نشوء المنظمات السياسية والمؤسسات الدعائية والصحف ووكالات الانباء حتى يجوز احتساب قرار حكومة ما أو جماعة ما معبرا عن رأي كل الشعب واعتبار الوقائع قد جرت برغبة كل الناس .

فاذا اثنينا الى التأريخ وجدنا ان الشعوب في تلك الازمان لم تكن وصلت في انفتاح الذهن والدخيلة والذات درجة تفهم تماثل المصلحة « للطبقة » ولا كانوا وعوا ان نضالا عاما من مجموع الطبقة يمكن أن يشل يد الظالم والمستغل ، بل انه لم يكن واضحا لهم مقدار الظلم والعدل الموجود فيما يسمى اليوم (استغلالا) . في تلك الازمان كان تسليم الزوجة والاولاد للدائن ضمانا لدينه دستورا وعرفا مقبولا . وكان الانسان المشترى بالنقد كثير الوجود وما من أحد كان يعزو قبح ذلك العمل واللوم عليه الى اصحاب النقد والمقدرة وان يكن كاتب مثلك ومثلي يأتي بعد مرور الوف السنين على ذلك التأريخ فيلفق الاحداث لجماهير المقهورين ويصورهم غير راضين ورافضين للظلم ونبعث المعارك ، أحيانا ، بينهم وبين الظلمة [على الورق] واقصد من عدم الرضا (عدم التسليم ورفع راية الاعتراض) وليس عدم

الارتياح لانه اذا كان شيء ما غير مريح لا يمكن ان يخلق احساسا بالراحة كما لو ان شخصا عضته حية أو ضاع منه مال او ماتت غنماته لا ينتظر منه الرقص والدبكة ولكنه لا يوبخ في ذلك احدا ، والاحوال المزعجة التي خلال الاف السنين ، صادرت من الناس الامان والراحة ما أثارتهم اكثر من ان يكون احساسهم الطبيعي قد كرهها كما كره طعم الحنظل والالم من الجروح فلم تتجاوز بهم ذلك الحد الى التململ أو عدم الرضا العام ، والشخص الذي ناله الالم دافع عن نفسه ضده بما هو متاح له من الاحساس بالاشياء ووسائل المدافعة لكن الناس الاخرين ما دافعوا عنه باسم الطبقة أو الشعب وفيما عدا شخصه واقرباءه والقريبين منه لم يتطوع احد من الغرباء بالاستماتة دونه ، حتى انه لم يرفع صوتا من عدم الرضا من ذلك في حدود ما هو بمعايير مجتمعات تلك الازمان احوال غير مريحة مألوفة ومشاكل منتظرة وما بذلت في تلك الظروف جهود عامة لتبديل القانون والعرف والدستور المؤذي فاذا تطوع ملك من ذات نفسه باحداث تغيير فيه لم يجز احتساب رغبته في رصيد المجتمع او ان امتداد الزمن آذن بالتبدل الوئيد الذاتي ، كما ينتهي الخريف من نفسه الى شتاء فهو أيضا لا بزينه ولا بشينه يرد الى ارادة الشعب ، وعدم رضا الفرد من ظلم يقع عليه لا يحتمل عنوان (عدم الرضا العام ــ او الاجماعي) ذلك ان كل واحد من اولئك الافراد يخلد الى الراحة اذا زال الظلم عن شخصه ولا يهتم بحال الاخرين متمثلا بالحكمة التي يعبر عنها المصريون بقولهم : الشر بره وبعيد • خلاصة القول ان ما يسمونه كفاحا طبقيا قلقا عاما لم يكن قد برز له وجود ملموس في تلك الازمان البعيدة وانما الذي حرك الناس عصرئذ هو مفهوم « محاولة الحياة » كما قلت فيما سبق ، وفي ازمان متأخرة جدا اتخذت صورة حركة عامة أو كفاح طبقي • ومع هذه الحقيقة التي ملأت اطول مدى في التأريخ فانه قد حدث في الاندر الاندر وفي وضع وحال متميز ان الشعب قد انتفض وتصدى للظلم الذي جاوز الحدود على نحو يحتمل

عنوان الحركة العامة ولكن حتى في تلك الاحوال النادرات فان الحركة العامة المذكورة يلاحظ عليهاما يلي :

اولا ــ القسم الاعظم من تلك الحركات الجماهيرية انبعث في اطار نداء ميال الى الدين وقاس الصالح والفاسد بمعايير الدين .

ثانيا ــ الحركة العامة تبعت فردا مرموقا وكفيا وشجاعا وخبيرا بالدنيا فلولا وجوده لصح القول بان الحركة ما كانت خليقة ان تقع الا اذا ملأ مكانه فرد اخر مثله فاذا قتل خمدت الحركة .

ثالثا ــ الاضطرابات التي كانت لها سمات الانفلات الخلقي والتصيد والتخريب وفصم الانسجة الاجتماعية لا يمكن اعتبارها على الجانب الصالح للحركات ؛ وللمثال فان حركة (مزدك) التي قامت على اساس من اطفاء الرغبة والشهوة لا هي محل مباهاة ولا كانت باتجاه تقدمي ولا كانت قادرة على اقامة حكم اصلح من الحكم الذي كانت ستهدمه عند انتصارها .

رابعا ــ قل من تلك الاحداث ما ارتفع فيه شعار الكفاح الطبقي بل كانت غالبيتها العظمى اختلالات مختلطة الشكول والالوان وما كانت تعي بوضوح ماذا تريد وفي حال انتصارها كانت تنتهي الى استيلاء فرد أو جماعة افراد على السلطة ، وبسبب من عدم وضوح الارادة عند الجماهير كانت الشرذمة الحاكمة الجديدة تمارس ظلم الحاكم القديم والناس ركعوا لها من جديد .

خامسا ــ الاحداث المذكورة لا تكفي أبدا لتسميتها محركة التأريخ أو صانعة التأريخ لان اعدادها كانت من القلة وأطرها من الضيق بحيث انها تختفي سريعا في بحور وبحور من الاحوال والاوضاع الهامدة ، ولولا انها مذكورة في الكتب لاختفت اثارها بالتمام والكمال . اذا سلمنا ان حدوث

واقعة واحدة خلال ثلثمئة او اربعمئة سنة في مكان واحد وليس في كل العالم أو قسمه الاكبر كاف لاثبات الكفاح الطبقي أو عدم الرضا العام والتمرد الشامل وجب ان نسلم بأن موسم المطر في بغداد هو فصل الصيف لانه يحدث ان ينزل المطر صيفا في بغداد كل خمسين عاما مرة واحـدة فيكون ان نزول المطر صيفا في بغداد اكثر سبع مرات أو ثمان مرات من حدوث حركة عامة فيها .

من الحيل الفكرية التي تمارس في النظرية المادية أن تحسب محاولة الحياة وتمرد الفرد أيضا من الكفاح الطبقي على حين لا يمكن اعتبار مدافعة كل الافراد ضد ظلم يقع بهم فيدفع كلا منهم على انفراد الى التمرد ، لا يعتبـر كفاحا طبقيا فالتصدي لدفع ظلم واقع على الشخص يمكن ان يقع من عامل ضد عامل مثله كأن يسرق احدهم رفش صاحبه أو يسوم فلاح غنمه في زرع جاره الفلاح فاننا نعلم ان الفرد يتشاجر يوميا مع بعض من افراد اسرته على امور غير لائقة أو كسر نصيحة او العبث بالمقتنيات ... الكفاح الطبقي له سمته وعلامته الفارقة وفي أولها (المشاركة في المحاولة العامة) وبعدها تحديد العدو العام . ولا ادقق كثيرا في اشتراط (هدف عام) لان ترصد وجـود الهدف العام وحيازة السلطة والوصول الى الحكم وما شابهها من المطاليب الارستقراطية أوهام وأضغاث احلام . فلو كان صحيحا ان الجماهير تكافح [سياسيا] منذ آلاف السنين فبفرض ان تجربة الف سنة لا تكفي لتكوين وعي ضروري للحاكمية فالستة الاف سنة لا تبقي الاعتذار بقلة التجربة وعدم الاعتياد والتهيب عند الجماهير يتشبث به المفكر الطبقـي ليتحجج في دوام بقاء كثرة الشعب رعايا وقلة الظالمين حكاما : ما السر في ان هؤلاء المتسلطين رغم قلة عددهم وعدم شرعية حكمهم يبدون وكأنهم يولدون وهم على علم بممارسة الريادة والقيادة والسيادة والسوق والاقتحام فلا اساتذة يعلمهم ولا من الغيب يطبطب على اكتافهم ، ويقينا ، لا يهدي اليهم المعونة والفراسة من المريخ ، على حين يعجز اولئك المظلومون بملايينهم المملينة والمنشغلون بحق

شرعي لهم وليس بالظلم ، يعجزون عن تعلم فن الدفاع عن الذات ناهيك عن انهم قاصرون عن ازاحة الظالمين وتأسيس حكم عادل يرتاحون في ظله . اننا نتوقع من مصطلح (النضال) عامة ومن (النضال الطبقي) خاصة نشاطا دائما وواعيا وجريئا لا أن نستعمل المجهر في قراءة سطور دقيقة من التأريخ لعل وعسى ان نعثر في ركن مغمور من احدى الورقات المتهرئة بحبرها الحائل على خبر من اخبار القلق والاضطراب نسميه جبرا وقهرا بالكفاح الطبقي .

يخطر ببال المدقق من اول ملاحظة انه لو كان الكفاح الطبقي هو ذلك الدائم الملحاح الذي يؤكد عليه النظر المادي لوجب ان يحصل في كل بلد خلال كل بضع سنين الاضطراب والفوضى العامان فاما الى النجاح او الى الاخفاق ولكن ينتظر ان ينجح مرة واحدة على الاقل في كل عشرة اخفاقات . وهذا تصور الدقة الاولى فاذا انعمت نظرك في المسألة اكثر تبادر الى ذهنك شيء اخر وهو أيضا يتحدى وعيك من خلال موازنات العقيدة المادية نفسها : لو صح ان الشعوب كان في قدرة وعيها وطاقتها واحساسها وادراكها ادامة كفاح شامل عام لاستحصال حقوقها وجب ان يكون من شأن هذه القدرة أن تحول ابتداء بين الاقلية الظالمة وبين ركوبها متون تلك الاكثرية المتصفة بالوعي والاحساس والمقدرة . لا يوجد تعليل واحد مقنع في النظرية الطبقية حين تقول لنا انه من القديم ومنذ اول نشوء الطبقات بدأ المظلومون في تخليص انفسهم وافناء الظالمين ولكنها ، اي النظرية ، لا تقول لنا لماذا حدث ان فئة قليلة من بين الناس استطاعت ان تستعبد الاكثر فهل كان من عمل السحر ان تتخلق في هذه الاقلية قوة فوق المعتاد تستذل بها غالبية البشر ام ان السحر قد أوهن الشعب واوقعه تحت سلطة وهجمة الاقلية التي لم يقع عليها السحر ! في مبدأ الامر لم تكن مؤسسات الحكم والشرطة والجيش والقانون والراتب الشهري والروابط الاجتماعية المتنوعة قد نشأت في المجتمع حتى نسلم ان الجهة والشرذمة التي استولت على المؤسسات ومقرات قيادات القوات المسلحة ومحطة الاذاعة تصبح هي مالكة السلطة والقائدة والرائدة وهزازة

السوط والمستغلة[1] ، بل على العكس ، فان قدرة الاقلية الحاكمة لما قبل الاف السنين التي برزت من العدم هي نفسها انشأت الحكومة والريادة والقيادة اي ان الحكم والحكومة نشأ ابتداء من الانسان لا ان الانسان بواسطة الحكومة الجاهزة اصبح مالك سلطة . هذا الكلام البدائي مني الذي سبقني اليه المفكر المادي محتاج الى التوضيح وسأحاول فيما يلي ان اوضح فيه رأيي باختصار ووفق عقيدتي ، وهذا هو التوضيح :

في واحدة من كتابات لينين تحت عنوان (الحكومة والثورة State and Revolution) تقرأ أنه بعد نشوء الطبقات المتميزة وظهور الاستغلال في المجتمع باشرت الطبقة العليا من أجل ادامة الاستغلال وحماية مصالحها الطبقية باشرت بتأسيس الحكومة وتنظيم الشرطة والجيش واقامة السجون ، ويوم يصل الانسان الى مرحلة انقضاء الاستغلال فالحكومة تذوب من ذاتها لان علة وجودها وهي الاستغلال قد اختفت . رأى لينين هذا اذ يعطي الاعتبار للعامل الاقتصادي وحده ، يستطيع ان يجيب من جهته فقط على السؤال عن كيفية نشوء الحكومة [فالسؤال موضوع سلفا على مقاس الجواب] ولكن الجواب يفتح المجال لسؤال اخر لا يوجد في نظرية لينين جوابه والسؤال هو : لماذا استطاع جزء صغير من الناس من الابتداء ان يستغل القسم الاعظم من الناس ؟. ولي ، قبل الاجابة على هذا السؤال نقد حاسم لنظرية لينين لا يسوغ اغفاله : نشوء الحكومة ليس ابدا محصول عامل

---

(١) لي ان اقول اني لا استطيع حتى في هذا العصر ان اصدق ، بحسب هذا النمط من التحليل صواب فكرة الكفاح الطبقي لان النظرية لا توضح لي كيف انه هذا الزمان المضاء بصنوف العلم تستطيع الاقلية استغلال ملايين المستغلين لمصلحتها الخاصة هي ويكون السوط في يده هو الشرطي والجندي مع ان اكثرية الشرطة والجيش م من اولئك الفقراء المستغلين فاما ان نقول ان الكفاح الطبقي ليس بالوصف الذي تصفه به النظرية واما ان تكون القوة المسلحة قد انتخبت من غير طبقة الفقراء واما ان يحصل انطواء حكم الاقلية في وقت قصير .

الاستغلال الاوحد بل انه لم يكن للاستغلال ابتداء اي دور في نشوء النظام السياسي [الحكومة] باحداث الاحوال والمصالح التي اجبرت انسان ما قبل الاف السنين على اقامة الحكم • ان تأسيس الحكومة وظهور الكتابة والعبادة والتعامل وبقية الظواهر الاجتماعية في بدايات نشـوء (الاجتمـاع) كلها خطوات واسعة الى الامام والى توسع مصالح الانسان وليس واحد منها ثمرة سبب واحد حقير من اسباب كثيرة في نسيج الشعوب . فكما ان صعـود الانسان [حسب التفكير العلماني] من مرحلة القردية الى مرحلة النياندرتال ومنها الى الانسان الكامل والقدرة على النطق لم يكن مرتبطا بعامل الاستغلال، بسبب ان الاستغلال لم يكن قد ظهر بعد ، كذلك ظهور الدولة والكتابة والدين والقرية والمدينة والصناعة والزراعة وجميع المظاهر الاجتماعية المتقدمة لا علاقة لواحد منها بالاستغلال • ويبدو بلا حاجة الى توضيح ان تجمع البشر في أطر الاسرة والعشيرة والقرية والمدينة وتشكيله للدولة وتقنينه للدساتير وتوفيره للسلاح والالات •• الخ كلها كانت متطلبات الحياة الاجتماعية والدفاع عن الذات ومحاولة الحياة التي لولاها جميعا في البدايات لما حصل شيء فيما بعد اسمه الاستغلال • اقول من باب التمثيل ان نشوء الاسرة في مبدأ الامر كان باقتضاء من معيشة الافـراد ثم حصلت ظروف تطلبت ، أو سلمت ، مبـدأ المصاهرة في صيغة (گصة بگصة) أو ان يأخـذ (السياق) ونعلم ان المرأة كانت منذ الاول راضية بهذه العادة حين لم يكن مـن المتصور وجود بديل لها • ولم تزل هذه العوائد عائشة في اوطان واحوال كثيرة ، والبنت تحبذ كثيرا ان تعوض اخا في (گصة بگصة) زوجتين وهي لنفسها اعتبار وشهرة • فاذا كان هذا هو الحقيقة فلا يجوز لما يسمى اليوم (حقوق المرأة) أن يعتبر أخذا بثأر قديم كان في اوانه تباع المرأة [والرجل ايضا] • ولو ان نساء ما قبل الف سنة طالبن بحقوق حصلن عليها اليوم اذا كن احرياء ان يمتن جوعا اذا حصلن عليها يومئذ • انا لا امدح تلك الايام البتـة اذ كانت المرأة تباع وتشترى وانا لا امدح أيضا تلك الحرية التي سوغت للمرأة قديما أن تلحق

رجلا بلا رضا اهلها ثم يتم الصلح فيها : انا انظر الى هذه المظاهر الاجتماعية فقط من ناحية (الاستغلال) كي اجد الفرق بين ظلم لا تأويل فيه وبين عادة كانت مقبولة في زمان مضى ثم تنقلب الى ظلم بتطور الاحوال .. ان الذي فكر في ابتداع الكتابة لم يكن يستهدف فيها تسليم سوط جديد للمرابي الذي يعطي النقود بالربا فيستعبد المدين بسند كمبيالة . ولم تستحدث المحاكم من اجل سوق المدينين الى السجون اراحة للدائنين بل ان اقوى الظالمين عبر التأريخ كان أكبر عدو للمحاكم ، لان عدم وجود المحكمة (وكذلك فتوى العالم الديني واحكام كتاب ابن حجر[1]) يفك يد الظالمين حتى يمارس ظلمه بلا توجس . وهذا هو السبب في ان الحكومات الظالمة تبادر الى تقليص اختصاصات القضاء . كثير من الكلام الذي يزعم في قالب من التحليل المادي ان المحاكم وجميع المؤسسات الرسمية في الحكومات اللا اشتراكية قد أقيمت لصالح اصحاب السلطان ، هذا الكلام يبعد عن الحق بعدا كبيرا ولا يكاد يستطيع التوافق حتى مع نفسه سواء في ضوء الكيفية التي نشأت بها القوانين والدساتير أو من نتائج اشتغال المؤسسات التي تطبق القوانين : نعم اعلم ان الشخص القوي والغني كثيرا ما يستطيع حمل المحكمة على الخطأ تحقيقا لمصلحته ولكن اضطرار الغني او القادر الى بذل الرشوة او استعمال التهديد يقوم بذاته دليلا على ان القانون ليس فاسدا في حد ذاته وانه صان جهة الحق والا لم يضطر القوي الى بذل المال أو التضرع أو التهديد بحسب الاحوال ، بل انه في الازمان التي ساد بها الاسترقاق كمظهر اجتماعي مقبول كان العبد يستفيد من القوانين المعمول بها في شؤون الرق رغم انها كانت تصون حقوق مالك العبد بالتمام ذلك انه لو ترك الامر لمطلق رغبة المالك دون أن يفسر

---

(١) في مناسبة ما راجع رجل فقير وحاج غني له بعض النفوذ ، والذي يستفتيان في خلاف بينهما . فقال لهما بعد سماعه موضوع الخلاف منهما : اذا كان الحكم بحسب (ابن حجر) فالحق في جانب هذا الفقير واذا كان بحسب (ابن خنجر) فالحاج يفوز في المسألة .. وقد فعل (ابن حجر) فعله وكسب الفقير القضية .

القانون حقوق كل جهة وكيفية الافتداء ... لازداد المالك قدرة على ابتزاز العبد ومنع تحرره . يجب ان نعلم ان بعض المواد الفاسدة في قانون ، لم تنهض من القانون (وفكرة القانون) نفسه بل ان المجتمع فيه نواح فاسدة تقفز منها النصوص الفاسدة الى التشريع ، وبفرض ان تلك الفسادات لم تصبح تشريعا فالاقوياء كان بامكانهم أن يطبقوا على الضعفاء ما هو شر من تلك النصوص . وبافتراض ان التشريع حدد حق الدائن عند مماطلة المدين بخمسة اسواط ينزلها الدائن بالمدين فالذنب في هذا لا يرجع للتشريع بقدر رجوعه الى المجتمع الذي ينعكس منه الصورة الى التشريع ، بل قد يكون فيه شيء من صالح المدين من حيث انه يمنع ايصال خمسة اسواط الى عشرة . ولكن اذا كان في التشريع جانب منصف فان الضعيف يصل الى خير ذلك الانصاف عن سبيل وجود النص القانوني والجهة المنفذة له والا استحال على الضعيف استيفاء دينه أو يوميته من شخص قوي وربما عجز عن النجاة من سخرة القوى اذا لم تحفظه حكومة وشريعة . لاشك ان واجب الانسان هو بذل الجهد الدائم لرفع مستوى القوانين في صيانة الحقوق ومنع الظلم ولكن ليس لنا ان نتغافل في حقيقة ان وجود المحكمة في كل الاحوال احسن من عدمها لصالح الضعفاء ، فأذا اعجب الرجل الخيالي ان يقول ان القانون الذي يحمي دين الدائن هو في صالح الاقوياء وانه يجب الغاء مثل هذا القانون فليكلف نفسه أولا ايجاد وسيلة تغني الفقير من الاستدانة والا فمن الممكن ان يموت الفقير جوعا في بعض الاحيان اذا لم يستطع الاستدانة من الغني . في السنين التي اعقبت الوثبة كان المثقف الثوري يتصدى للراعي الكردي لعله يرفض مهنته بسبب قلة الاجر الذي يستوفيه منها وهي ثلاثة دنانير في السنة فقال احد الرعاة لواحد منهم :

يا جناب الافندي اعطني خمسة دنانير حتى اترك مهنتي ! في هذه المسألة ، بالاضافة الى عدم واقعية اولئك المثقفين توجد جوانب أخرى عجيبة يبدو فيها المثقف الكردي أبهل من باهل ! هذه الاجرة الزهيدة للراعي ورضاه

بها ، كان كثير من اصحاب البهيمة يضيقون بتوفير قسطهم منها فمنهم من كان ارملة أو يتيما له ولها بضع معزى ترهق كليهما وفي الاشتية القاسية لم يكونا يستطيعان توفير علفهما فاما ان يبيعاها بثمن رخيص او تموت في حظائرها من البرد والجوع • ان عدم الرضا بالقانون والعرف ليس أمرا سهلا ولا هو طوع القلب حتى يحيله الانسان من طرف لسانه الى تهمة يرمي بها الاجتماع • لاشك ان مثل هذا الشخص في الاحوال السائدة بين أهل بيته يتقبل في سعة صدر ودماثة خلق كثيرا من الاشياء التي يتخذها خارج بيته اسبابا للاثارة والصخب وتأليب الناس بعضهم على بعض ويعتبر ذلك منه على انه روح ثورية ــ واسفاه • انا اذا ملنا الى علاج مشكلة الاقتراض بأن نجعل من التحريض على الامتناع عن ادائه للدائن سببا لمنع التعامل بين الناس ، وجب أن نفتي بتحريم تكوين الأسرة بحجة منع الغصة بغصة والسياق حتى لا يكون وجود الاخ والاخت سببا لضياع حق الاخت في كنف الاخ ثم يجب ان نمتنع عن مراجعة الخياط حتى لا نمكنه من امتصاص دمائنا والاحسن من كل ذلك ان يبادر الفلاح الى ذبح بهائمه منعا لاحتمال سرقتها من قبل المتسلط عليه او مصادرتها منه ••

احاول الان ان اقدم من وجهة نظري اجابة السؤال الذي لم يكن في نظرية لينين عن نشوء الدولة جواب عليه والسؤال هو : لماذا حدث في اول نشوء الاجتماع ان قلة من الناس استطاعت أن تتمتع بالسلطان على اكثرية الناس ثم تنشأ الحكومة فيما بعد من هذا السلطان :

الواقع هو أن جواب هذا السؤال يؤخذ من علماء الآثار والتأريخ لان الظواهر الاجتماعية كلها التي لو كان لها سجل كامل ومنظم لم تكن البحوث الاقتصادية والسياسية والفلسفية فيها تحتاج الى المكتشفات الاثارية والتأريخية ، هذه الظواهر جميعا تقع ضمن اطار علم الاثار وبعدها التأريخ [اجد من حقي التفرقة بين علمي الاثار والتأريخ كما فعلت هنا وسأفعل] لكن

الفلسفة المادية لا تنتظر في برامجها فتوى من العلماء الذين هم خارج نطـاق قدرتها حتى تتسلم منهم جواب هذه الاسئلة التي قد هيأت لهن الجواب حسب قناعتها من التحليل الاقتصادي لاننا نعلم ان الفلسفة المادية قد شدت حول ذاتها سيورا من التحليل الاقتصادي على نحو من الاحكام لا يسمح بارخاء اي من تلك السيور يسمح بتسرب تحليل اخر خلال فرجته : اقول من باب المثال انه اذا أظهر التنقيب ان عامل الدين في الارض الفلانية صار سببا لنشوء الدولة فيترتب على الفيلسوف المادي ان يفعل أحد العملين الاتيين :

فاما ان يكذب هذا الرأي من المنقبين ويضع مكانه سببا اقتصاديا ، واما ان يرجع بالظاهرة الدينية على نحو من الانحاء الى اساس مادي .

حين قال لينين انه في بدايات تمايز الطبقات عمدت الطبقة العليا الى تنظيم الحكومة من اجل غاية واحدة فقط وهي ادامة استغلالها للطبقات الاخرى لم يسأل في ذلك التأريخ والآثار لعلهما يجدان جوابا مقبولا ، بل انه استعاد من الاحكام الاقتصادية النهائية تعليلا فرضه على ماض له امتداد الاف السنين ومن هناك حفر ترعة ينساب فيها الى يوم في رحم المستقبل تتلاشى فيه الحكومة في جنة من انعدام الاستغلال وينقضي أوانها .. فاذا كنت احاول في ضوء هـذه العقيدة ان أقدم الاجابة على السؤال لا أجد نفسي ملزما بالرجوع الى المصادر التأريخية والاركايولوجية التي تبحث في بدايات نشوء السلطة الاسرية والقبلية والحكومية ولو اني في بناء رأيي انظر دواما من طرف عيني فكري الى تلك المصادر ولا اذكر اني وجدت من علمائها رأيا يستعصي قبوله علـى التحليل الخاص المحايد .

في رأيي انه مما يرقى الى مستوى البديهية ان نشوء سلطة الرئاسة في مجتمع الانسان بأوائل التماسك الجماعي في صورة الاسرة وما هو أوسع منها كان بحكم الضرورة الملجئة قبل ان يكون لطمع الاستغلال اي دخل في تكوين هذه الرئاسة وقدراتها . ظهور (الرئيس) في المجتمعات التي انتظمت في احوال

تستدعي التعايش قبل عشرات الوف السنين لم يكن مرتبطا بالتخطيط والخديعة والتخويف والتهديد وانما كان في شكل نمو ذاتي وظهور عفوي وكان ذلك قد فرض ذاته على نسيج تلك المجتمعات من سببين اساسيين :

السبب الاول هو اقتضاء الصالح العام لافراد المجتمع وجود نظام ووحدة عمل وتعاونا ونشاطا وما الى ذلك من الاسباب التي يرتبط بها شبـع وامان ودوام المجتمع وواضح ان هذه الامور لا تتحقق من ذاتها بلا قائد او دليل أو تئول الى نظام ودستور . لهذا كان عامل محاولة الحياة في منتهى العفوية يدفع المجتمع الى قبول الرائد والامر . لا تستغرب ما تسمعه من الحكايات القديمة ان اهل مدينة ما كانوا يطلقون (بازالدولة) عند موت ملكهم كي يملكوا عليهم اي شخص يحط الباز على كتفه . كثير من الامثال والحكم المأثورة اشترطت وجود الرئيس من ضرورات المصلحة دون ان يكون وراء تلك الامثال استاذ أو نية سياسية او اقتصادية او خداعية ، كما تسمع في المثل : لولا الانف حاجز لأكلت العين عينا . ويقول شكري فضلي ما معناه في بيته الكردي :

لا قوم بلا رأس في العالم كله
فان رمت أن تكون تاجا فوق رأس فلا ترنحه بالاهواء

[فالرأس اذا مال وقع التاج من فوقه]

ولم يزل حتى يومنا هذا مصطلح (رأس الحاصودين) بين عمال الحصاد رائجا .

وفي بدايات تشكل المجتمعات لم يكن النقد موجودا ولا الطمع أطل برأسه ولا التجارة والبنك والفندق قد ظهرت فيسيل لها لعاب البشر وتحمله على امتلاكها ويستغل بها الناس . انا اذا استغربنا ان سكان الغابات والكهوف قد رضيت ، من اجل السلامة من خطر الموت منذ الاف السنين ، بواحد منها منظما وقائدا فقد وجب ان نذهب في نومة مغناطيسية استغرابا مـن وجود الرئيس في كل مناحي الحياة الحاضرة التافهة والخطيرة ، ونازلا من الرئيس

يوجد معاون الرئيس وسكرتيره وعضو الادارة ولكل منهم درجة سلطة خاصة به تتفاوت من واحد الى اخر فلا يستغرب احد من الناس هذا الترتيب بل يستغربون عدم وجوده ولو تركنا المؤسسات السياسية والاجتماعية والفنية والادبية والعسكرية وتمسكنا باصغر غصن في شجرة الاجتماع هو (الاسرة) حيث لا توجد اية فكرة للاستغلال يوجد واحد يملك حق التنظيم والامر والعقوبة حتى اذا كان من ينتظر منه الرئاسة ضعيفا حلت زوجته محله . باختصار ان هذه القدرة التي تملك قوة التنظيم منذ نشأة الاجتماع كانت موجودة ولم تزل مستمرة ، ووجودها من مستلزمات حياة المجموع وليس ضد مصلحته . فاذا حدث في القديم او فيما بعد ان استغلت في العمل الضار او المصلحة الشخصية الضيقة أو ضد مصلحة المجموع فلا هي نشأت ابتداء مخالفة الصالح العام ولا كانت فيما بعد ضارة في كل وقت وكل مكان حتى انها في أحوال ميلها الى الشر لم تنقطع عن كونها ، اي الرئاسة ، ضرورية للمجتمع وغاية الامر انها يجب تصحيحها .

السبب الثاني لظهور قدرة التنظيم والتوجيه هو ان افراد البشر متفاوتون بحكم طبيعة التوالد والتنمية والتربية ، متفاوتون فيهم الصغير والكبير والقوي والضعيف والذكي والغبي والحيال والساذج وعلى درجات اخرى كثيرة من اللياقة بحيث انهم اذا وضعوا في الميزان كالحجر والشجر لقياس قابلياتهم خفت كفة هذا ورجحت كفة ذاك من ذات نفسها بلا احتيال : فاذا حدث خلاف ونزاع بينهم يعرف منذ البداية من هو الفائز منهم ، ولو قضوا العمر كله في صداقة وتفاهم ما يخفى على أحد من هو أعلى يدا . فاذا أراد احد من بشر هذا اليوم ان يرد هذا التفوق المادي والمعنوي للفرد من الوف السنين الى السبب الاوحد من ميل الاستغلال فليسأل نفسه عن طغمة الرؤساء السياسيين لايامنا هذه وهم في ميدان حب البشر يقتل بعضهم بعضا ويعبر أحدهم على جثة صديقه للوصول الى الحكم فما عدد درجات تجاوزهم صعيد الاستغلال والظلم واي روح للانسانية المنكرة للذات تحملهم على التمسك بالحكم ؟

إسأل هذا السؤال لعل مثقفينا الثوريين الذين يرون ، صدقا او خطأ ، خميرة الاستغلال في نشوء سلطة الرئاسة والحكم قبل الاف السنين ويعضون بنان الحسرة اسفا على المظلومين الراحلين لعلهم يديرون نظرة مقارنة بين القديم والجديد فيجدون :

١ ــ ان ظلما وقع في الماضي لا يكون تزكية لظلم يمارسه التقدمي المحب للبشر !!

٢ ــ ان الرائد الثوري الذي يجعل ظلما قديما كالعلج يديره بين شدقيه فيفضحه ويشوه اسمه ، هو أقبح وجدانا واشد ظلما واسقط عذرا وأوهى حجة من ظالم مات قبل ثلاثين الف سنة عندما يأتي اليوم فيكتم نفس صديقه ليدوم مدة اكثر على عرش الحاكمية .

٣ ــ ان مثقف القرن العشرين يكون اشد تفاهة وصعلكة من ناس سلحوا للظلم في عصر سومر وأكد ، اذا غض نظره عن ظلم يفعله رئيسه ، وينسلخ من الانسانية تماما اذا انحاز الى جبهة الظلم ضد الاحرار الذين يدافعون عن الحرية ...

الخلاصة هي انه في القديم حدث باجتماع مصلحة المجموع الى قابلية الفرد المتميز أن ينشأ الرئيس والرائد والامر حتى اذا حال مانع دون نشوئهم تضررت الجماعة باكثر مما يتضرر الفرد في اضاعته الرياسة .

هذه الرئاسة الحتمية التي اصبحت منذ تكون العائلة ضرورة اجتماعية صارت اكثر ضرورة حين تمطى نطاق الاسرة الى نطاق العشيرة لان مهام الرئيس في هذه المرحلة تضاعفت بزيادة حجم المصلحة التي تمثلها العشيرة بالمقارنة الى مصلحة الاسرة . وواضح انه ليس من حقنا تكلف الغضب بما قد كان من زيادة احتياج رئيس العشيرة الى الخدم والاتباع والخيل وانبغال والسائمة ولوازم الرئاسة مما يحتاجه رئيس العائلة لان ثقل الرئاسة القبلية لا تتحمله موجودات العائلة . في هذه المرحلة القديمة البدائية من حياة

العشيرة الاجتماعية لم يكن الاستغلال قد تولد بعد حتى ان صورة من هذه الحياة الساذجة التي لم تكن قد زرعت بعد بذرة الاستغلال في خطى الرئيس مازالت موجودة ولاسيما بين العشائر الرحل التي تعيش حياة جماعة كأنها مؤلفة من عدد بيوت كلها لاخوة اشقاء . والذي أذكره ان انگلز ، وهو المفكر المادي الكبير ، اعتبر تلك القبائل على مقدار من النظافة هي اكثر من الحقيقة .. كما انه يعزو الى القبائل التي تترك حياة الرحل فتستقر اكثر من السوء الذي فيها [منذ مدة بعيدة قرأت هذا البحث لانجلز] فالمستقرة منها ليست كلها سواء في الضراوة والاستغلال ولا كلها تتبع سبيلا واحدة في الاستقرار والمعيشة . في بلد متخلف قليل الدخل خال من رأس المال والبرجوازية مثل القسم الاوسع من كردستان تظل الروابط البدائية القديمة الساذجة الى زمان مديد على حالها القديمة لان علائق الارتحال نفسها تنعكس من حياة استقرار تلك العشائر ويعتبر رئيس العشيرة والمختارية واصحاب الكلمة النافذة من قرابة سواد العشيرة حتى ان الفلاح في هذه المجتمعات القبلية لا يسمى « مسكين » شأنه شأن افراد الاسرة الواحدة في ان اي واحد منهم لا يسمى خادما ، خادمة ، بطانة .. هذه الانماط من الحياة القبلية كانت باقية في كردستان حتى جاءت القوانين المتصلة بالاصلاح الزراعي وتغير شكل الحكومات من قوالبها القديمة وتسربت صور كثيرة من حياة المدينة الى القرى ولكن روحها مازالت باقية ولم تختف في كل المواطن . على أي حال ان تطور احوال الاجتماع والاقتصاد وروابط الصغر والكبر في حياة القرية متوقفة على العوامل التي تمهد العقيدة والتصور والقناعة والذات وتفاصيل مضامين البشرية بخيرها وشرها تمهدها الى العلو أو الى السفل ، وفي كل الاحوال يبقى قدر من السمات القديمة للقرابة والصداقة والحياة المترحلة عالقا بمجمل الصورة حتى يوم يصل فيه تطور المجتمع حدا لا يطيق هذه الروابط والقسمات ولا فرق في ذلك بين ان يكون هذا التطور بسبب تقدم المجتمع نفسه ام بسبب التطويع والحفز والتمرين والاثارة وما اليها ذلك ان

الشرط الاساسي لحصول هذا التحول وهو عدم الرضا والتمرد على ما هو موجود مرتبط بالذات • فالمسألة ليست عملية آلية •

هذه الكلمات الاخيرة قطعتني من سلسلة انتقال الانسان من روابط الاسرة الى وشائج ذات أطار أوسع ، فلأرجع اليها •

كما تعلم واعلم فانه بتدرج نمو المجتمع وتوسع نشاطاته وازدياد سكانه وتنوع مصالحه وتراكم تجربته وتفاقم مطاليب المعيشة فيه (لا اتطرق الى موضوع نشوء العقيدة الدينية الا في مواضع الضرورة القصوى) وبروز سائر الاشياء المادية والمعنوية فيه نما الريف متدرجا الى حجم المدينة وفي اماكن ذات احوال اكثر اراحة نشأت المدن وخلال ذلك على قدر صعود مناحي الاجتماع حصلت الحاجة الى سلطة أعظم وأفهم واعظم من رئاسة العشيرة فاوجبت تنظيم الحكم ، ومهما يكن الاستغلال خلال ذلك اثبت وجوده فان حساب نشوء الحكومة لا يرجع الى وجوده فهي مثل رئيس العائلة ورئيس القبيلة برزت باقتضاء المصلحة العامة وان تكن فيها مجالات العدوان واللاشرعية فالحكومة تخلقت في احشاء المصلحة والضرورة وليس في رحم الدموية وكتم النفس والذي يقرر ضرورة وجود الحكومة هو مقارنة وجودها الى عدمها وليس اشتراط خلوها من كل سوء فاذا اشترطنا هذا الخير المطلق لوجود الحكومة وجب أن نهدم كل حكومات الدنيا لانها جميعا تحوي جانبا من السوء • مع كل هذا فاذا آمنا بان نشوء الحكومة كان بالاساس من اجل امتصاص دم المستغلين كان من حقنا أن نرفع الامنية الى الماضي السحيق لعله لا يخلق هذه الآلة الجهنمية كما تتمنى اليوم الا يوجد ذئب وزلزال ومرض السرطان والرق والحرب •••

كما ترى ان توسع سلطة الرئاسة من الاسرة الى العشيرة الى الاقطاع الى الحكومة كان بداعي المصلحة وضرورة التقدم وان يكن الشر قد خالطها : وفي نشوء الحكومة أيضا كان للياقة والشجاعة والحصافة وبقية صفات

الرئاسة دورها المحتوم سواء فيما يخص طائفة السطح الاعلى للمجتمع ام الفرد الواحد في قمة الهرم . هذه هي حقيقة نشوء الحكومة وهي نفسها من مكتشفات التنقيبات الاثرية والبحوث التأريخية ، ويأتي سكوت المفكرين الماديين عن هذه الحقيقة من عدم توافقها مع وحدانية السبب الاقتصادي ومع وحدانية الاستغلال في الاقتصاد كأساس لظهور الحكومة فاذا اخفق التوافق كان التخلي عن السبب الاقتصادي الاستغلالي مستدعيا لذهاب جانب من قوة الدفع والاثارة والفوران في حرب الطبقات لان قبول هذا التسبيب يمنح نشوء السلطة شيئا من الشرعية فيزعزع مكانة فكرة الاستغلال الى حد ما : لاشك ان شخصا من البروليتاريا اذا عرف انه كانت المصلحة قديما هي التي استوجبت وجود الرئيس والرائد وليس مص الدماء لا يسهل اقناعه بان قتل الرؤساء والقادة في حكومات هذا العصر وهم ورثة سلطة قديمة وتأريخية شيء مشروع لا يحتاج الى تفكير ويستحق التضحية بالذات في سبيل تحقيقه، على اي حال ان حفز الفقراء الى ثورية بلا حدود منتظر اكثر من عدم شرعية السلطة في جميع المراحل السابقة على الاشتراكية ، واقول في التوضيح ان الاسلام في ميدانه لم يقل ان عدم معرفة الله كانت في كل الازمان مستوجبة للعذاب الابدي بل ربط العذاب بمجيء الانبياء منذرين وبقاء الناس على جحودهم (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وكان هذا هو السبب في ابان وصوله الحكم أن ترك حرية البقاء لاصحاب الاديان السماوية على عقائدهم القديمة لقاء «الجزية» فقد كان مقرا بشرعية نزول تلك الاديان في اوانها القديم ، ولكن الفلسفة المادية لا ترضى لشيء غير نفسها أن يتنفس لدقيقة واحدة .

في هذا العرض لنشوء سلطة الرئاسة وتطورها الى (حكومة) ليس دور (الذات) في مجمل التطور والتقدم الذي حصل هو الفعال الاساسي بل هو الفعال الاوحد لانه فضلا عن صفات اللياقة والقوة والقيادة في الرؤساء القدماء وهي كلها ذاتية خالصة فأن جهة المصلحة التي طلبت وجود رئيس ورائد هي

أيضا تعود الى الذات ولكن ذات مجموع الافراد بما فيهم الرئيس والمرؤوس اذ وجدت المصلحة في وجود الرئيس وذلك هو السبب في بروزها وسيطرتها بسهولة وبلا منازعة وللسبب عينـــه لا نصادف في التأريخ القديم الا نادرا حدوث حركة عامة ضد طبقة الرؤساء التي احدثت الحكومة ، ولو كان صاحب السلطة لم يجاوز الحدود المقبولة في ظلمه لازدادت الحركات العامة تناقصا • وفي هذا العدد المحدود من الحركات كان دور ذوات قادتها مؤثرا بقدر تأثير الحركة كلها فاذا انتصر فيها اصبح وارثا لسلطان من سبقه وفعل مثله •

فاذا استقبلنا الاحداث التأريخية الكبرى من واجهة الاقتصاد ، وهـــي أحداث تشمل الحروب والاضطرابات بين الدول ، فان دور الذات فيها أظهر منها في غيرها فانه فضلا عن ان انبعاث تلك الاحداث كان في غالبيته القصوى برغبة الرؤساء دون ان يكـــون للطبقات التحتية رأي أو مشـــورة فيها فان الرؤساء انفسهم في احوال كثيرة ، دون ان يكونوا استهدفوا مصلحة ، حركهم كره شخصي أو ميل الى التباهي واذلال الاخرين بل قد حدث ان عرقا من الجنون او المرض النفسي ساقهم الى حروب فادحة فاما اشبعوا ميلهم الشاذ في نهاية الحرب أو انتهت بانتهائهم • دقق نظرك في التخريب الـــذي يعقب انتصار احدى الجهتين في وطن الجهة المهزومة تجد انه قد صرف فيه جهد لم يصرف مثله أبدا في البناء والتعمير وقد خلا جانب من هذا التخريب من كل حافز الا حافز النفوس الضالة • كثيرا ما تعتري نفوس جنود الجيش المنتصر حالة من ارادة الهدم والحـــرق والقتل تشبه حالـــة (الجذبة) التي تعتري المتصوف ولكن في الضراوة التي لا هدف من ورائها كالذئب الذي يفتك بما يساوي اكثر من مئة ضعف ما يحتاجه • يروون عن جندي في جيش منتصر منذ مئة سنة انه اغتصب طفلة في مهدها ثم قتلها •• انها كانت من قوم كفرة !!

لا وقت لاحد يصرفه في سرد الامثلة التي لا تحصى في التأريخ القديم والحديث على فاعلية دور الذات في الاحداث والاوضاع بخيرها وشرها لان

طريق ذلك طويل لا ينتهي فاختصره هنـ بقولي لك : اجعل من سلوكـك وتصرفك مرآة للواقع القديم والحديث وانظر في عدد المرات التي تتصرف فيها على حسب مقتضى رغبتك وكيف ان الحب والبغض والخوف وعـدم الاكتراث و .. و .. يستثيرك قبل ان تكون مصلحتك الحقيقية تنبهت لشيء، والحق هو ان الكثرة الكاثرة من تصرف الشاب الخالي من مسئولية الاسرة لا دخل لها بالمصلحة وكلها من مقررات نفسه الفجة ولو حاول ان يقنع نفسه بانه مثل الشخص المثقل بالكلفة والواجب شخص موضوعي بعيد من العاطفة . ان الشاب المندفع الممتلىء حماسا في انسياقه وراء فورة ذاته وهو يعتقد انه مشغول بتحقيق المنافع العامة ، يجد بعد انقضاء عمر القلق والتهور ويقظة عقله وادراكه ، يجد فداحة ضلاله وعمى ذاته وعندئذ قد يندم ويسلك طريقا معاكسا مكسور الخاطر او يظل تحت احمال نفسه المثقلة فتأخذه العزة بالاثم ويتمادى في ستر اخطاء ماضيه الفتي بزيادة من الفورة والحدة ، وقد ينجو من دوامة نفسه الضالة الى تصرف سليم . ان شيئا من التوقف عند هـذه الملحوظة الاخيرة يوضح لك ان مسألة غرق شباب هذا العصر في الخطأ واحدة من المؤثرات الفعالة لدولاب حياتنا الاجتماعية لان عدد اولئك الشباب يوشك ان يزيد على عدد البروليتاريا والكسبة وسائر الخلق الذين يتعاملون مـع مصلحة مادية ويحملون كلفة ادامة الاسر ، وواضح ان الشاب الخالي مـن مسئولية المعيشة والاعاشة لا صلة له بالموضوعية الا بالتأويل الهجين المشبوه ففي هذا العمر الغض والخلو من المسئولية وفي فوران العاطفة واتساع ميدان الحياة المختلطة بالشهوات ما عسى ان يخامر قلوب ملايين الشباب المتجمعين في الكليات والجامعات وكيف يلفون رغبات نفوسهم في غلالات من ادعاء حب الشعب والمصلحة العامة وصداقة الشغيلة وعداوة الظلم ، وكذلك ما اسهل استغلالهم من قبل اصحاب اللسان الـذرب ومضللي الجماهير في اهدافهم اللامشروعة وربما حملوهم على التضحية بالذات . حقـا ان مشكلة هؤلاء الشباب التي هي حصيلة حياة العصر وحضارته وهم كثيرا ما يكونون أنشط

مما يسمى (طبقة) ، هذه المشكلة لم يحسب حسابها في نظريات المفكرين الماضين ولم يحسب كذلك شيء لدور القوات المسلحة في العالم الثالث فما واحد من ذلك مر بخاطر اصحاب النظريات حتى يقام له وزن في التأريخ والسياسة والاجتماع . ومن الحيثيات غير الواضحة في اولئك الشباب والجيوش انه لا يمكن اضفاء الطبقية على تكوينهم لانهم كالحنطة المختلطة فيهم من كل طبقة ، والشباب يتميز من الجيش بان حصة البنات في الشباب واضحة بما يقارب نصف المجموع والجيش كله ، الا نسبة ضئيلة في مثل مرفق التمريض ، من الرجال .

زبدة الكلام والبحث هي أنه مهما قلبت الانسانية والتأريخ والاجتماع على وجوهها من التقدم والتأخر وبما فيها من دين وعقيدة وحركة وسكون وكل حيثيات الانسان فستصل حتما الى ما توصلنا اليه في هذه الكتابة وهو فاعلية الذات ومفعولية المادة من حيث ان الانسان مخلوق ذاتي وان ما فيه من موضوعية محصول التقاء ذاته بالمحيط من حوله ، وليس بعد هذا اي حق للمفكر المادي ان يكون خوف الثنائية سببا لانزلاق فكره الى حجب الاولوية والريادة والفاعلية من الانسان ونسبتها الى المادة الميتة الجامدة .

ما كتبت في الصفحات الاخيرة من خوف الثنائية شيء مستنبع من خاصة تفكيري وليس من اعتراف الكتاب الماديين به ، واظن ان تصوري ليس عائما بلا جذر او اساس ولو تم التسليم بما قلت فانه سيتماشى مع موقف وكلام وتحليل والنظرة التأريخية والاجتماعية لاصحاب المنحى المادي ويزودهم بالتفسير : ومن باب التجربة لهذا الذي قلته الان خذ تحليلا ماديا مما يجعل الانسان في المرتبة الثانية بعد الاسباب المادية وقارنه بآرائي هذه وحرك فيه عامل خوف الثنائية واظره كم مرة يهمل فيها الانسان فيتخطاه ويتخطى رغبته الخاصة في الرضا بالشيء القبيح أو بالرفض لما هو صالح فاننا نعلم ان الانسان كثيرا ما يجد رغبة قلبه فيما هو سيء ومتسم بالجبن وغير مبرر ويستعمل

قدرته خلافا للمنطق والعدالة والمصلحة ، وعندما يحصل بين الفينة والفينة ان يضطر الكاتب المادي الى الاعتراف بضلال الجماهير يجهد في رد سببه الى حيل المحتالين ومسئولية العقيدة الملتوية والى السذاجة وعدم النضج وما الى ذلك على صورة توحي بان هذه الظواهر او المظاهر أيضا اشياء مادية كالنقد والماش وجلد الثعلب ، في حين انها بكل ما فيها من قبح مولود دخيلة البشر ومن الاسباب المؤثرة في الاجتماع والعقيدة والعرف والامور المعنوية . منذ مئة سنة حين كان تلك الكثرة الكاثرة من مريدي (الشيخ نبي الماويلي[1]) مصرة على قتل (حاجى قادر الكويى) بأمر من الشيخ فما هو السبب المادي ، من شخصي وعمومي ، الذي كان حافز اولئك المريدين على الفوران ؟ ما حصل من الاشتباك الداخلي للجبهة الوطنية المتحدة سنة ١٩٥٨ و ١٩٥٩ فالى اي مصلحة مشروعة للناس كان ذلك ؟ عدم اتفاق الشيوعيين والاشتراكيين الالمان اوائل الثلاثينات من هذا القرن وقد انجر الى ضعفهم ومجيء النازيين الى الحكم ماذا كان مضمونه غير عماية النفس وفورة الحشا من الحزبين ، والشيوعيين منهم خاصة (بسبب أنهم كانوا اكثر اندفاعا وبالتالي افدح حسارة) ؟ مهما يكن الضرر المحتمل الذي كان ممكنا ان يلحق الشيوعيين الالمان في اتفاقهم مع الاشتراكيين فلا يقارن قطعا مع ما لقوه من النازيين ، والوطن الاول للاشتراكية ، روسيا نفسها ، ما كانت تصل حافة الهلاك التي وصلتها سنة ١٩٤١ في الهجوم النازي عليها . كل تبرير (مادي !) أو لا مادي لعدم الاتفاق المذكور والوف المواقف السخيفة المماثلة لا يقوم بفلس واحد ولا يوفر ذرة قناعة ولا يقترب بنا شبرا واحدا من الحقيقة والتحليل الصحيح الا ما كان ممكنا من حملنا على تصديق كاذب لعقيدة مضللة بتعليل ملتو متهاو . وها هنا ملحوظة صغيرة لا يسوغ تجاوزها وهي من جانبها تلقي الضوء على كيفية تباعد موقفين (ذاتيين) تلقاء حدثين متماثلين : وجدت كثيرا

---

(١) في الاجزاء الثلاثة من كتابي الموسوم (الحاج قادر الكويي) ذكبر لضجة الخلاف بين الحاج قادر والشيخ نبي ، لاسيما في الجزء الثالث منها .

من الكتاب المادين أقر بخطأ الشيوعيين الالمان في عدم اتفاقهم مع الاشتراكيين ويكتشفون هذا الخطأ من كون عدم الاتفاق المذكور ممهدا فيما بعد للهجوم النازي على المانيا ، ولكنهم لا يسلمون ان اتفاق الروس مع النازيين قبيل اندلاع الحرب الثانية كان خطأ قاتلا ، مع أن هذا الاتفاق هو الذي ادى الى ان يكون عدم اتفاق الشيوعين الالمان مع الاشتراكيين منذ بضع سنين منجرا الى حصول تهديد خطير لحياة روسيا الشيوعية فانه اذا لم يكن ستالين يخلي الطريق لهتلر في ايلول ١٩٣٩ ان يكتسح بولونيا ثم يقضي على الجيش الفرنسي في ١٩٤٠ ما كان باستطاعة هتلر في ١٩٤١ ان يهاجم روسيا ، ولا تبرير قطعا فيما يقال من ان ستالين بسبب خوفه من اتفاق فرنسا وبريطانيا مع المانيا اضطر الى مهادنة هتلر فلقد رأينا ان دول غرب اوروبا لم تتفق مع هتلر في اي حال من الاحوال • انا اذا قبلنا عذرا ساذجا غير مستند الى اي اساس من ستالين فنحن ملزمون ابتداء برفع العتب عن الشيوعيين الالمان فهم كذلك يستطيعون عن طريق التلاعب باللفظ تقديم ادلة واعذار مقنعة ينجون بها من المعتبة • فاذا اراد المفكر المادي ان يكون له موقف واحد من هذين الحدثين فأولى له ان يقبل الاعذار والتبريرات من الشيوعيين الالمان ويلقي باللوم على الاشتراكيين فما دام انكار التأريخ وقلب الاحداث غير ممكن فلنحاول أن نغير اقوالنا وآراءنا الى التناغم والتماثل •

اذا جاز لنا أن نتزّل من الاحداث الجسام التي تقع بين الدول الى الامثال والحكم المأثورة لتفحص جهة (الذاتية) في الانسان من وجهة نظر واضعي تلك الامثال وهم الشعب ، نجد ان هذه الجهة محسوسة بصورة عفوية في المأثورات ولكن دون ان يقيم الجدل حول كون الانسان ذاتيا أو موضوعيا [واضح ان هذا لم يكن في الامكان] • سأستعير من هذه الامثال نماذج تصلح أن تقاس بمعايير الذاتية والموضوعية والا فان منها ما هو بالغ من الذاتية ما جاوز اطارها ليدخل اطار الغيب ، بل الاسطورة أيضا ، وواضح ان الغيب والاسطورة لا ربط لها بالموضوعية في موازين التفكير المادي •

يقول واحد من الامثال [والامثلة كلها مأخوذة من التراث الكردي : يرى القشة الصغيرة في عين غيره ولا يرى المكحلة في عينه . هذا المثل تحديد ذكي للمقولة الشهيرة التي تقول : لا أحد يرى عيب ذاته وكلاهما قريب ، او ابن عم ، المثل الذي يقول : لا احد يقول عن شنينته انها حامضة . الامثال هذه مع تصويرها لجهة المصلحة الذاتية وتفضيل الذات ، وهي تطابق مع الانتهازية نصا بنص ، صريحة في ان الانسان يتخذ من قلبه ودخيلته وشهيته معيار الصلاح والفساد وواضح ان هذا من سويداء الذاتية بمبعدة كلية من الموضوعية . اذا لم يكن في ضمير الانسان نوع اقتناع بشرعية وصواب (رؤية القشة في عين الاخرين) لا يجرأ ان يصرح علنا باعتبارها عيبا في غيره ، وكذلك شأنه في انه اذا احس احساسا قويا بكون المكحلة في عينه عيبا تهيب مرة اخرى ان يقدح في القشة غمزا ولمزا . ان عدم رؤية العيب الشخصي ورؤية عيب الاخرين هي قبل كل شيء موقف ذاتي ثم يجوز التحول به الى الانتهازية ففي هذه الاخيرة فضلا عن (النظرة الذاتية) يتجلى الاستخفاف بل قلة الحياء أيضا مما يخرج بها عن الموضوعية بشكل مطلق .

اقول لك خالي حتى تصيد لي العصفور .
ان يدا لا استطيع قطعها أقبلها .
من يأخذ امه فهو ابوه .
متسللا متسللا اتقرب منك .
اذا شوهدت فانا انا واذا لم أشاهد فانا لص .

هذه كلها جاوزت الذاتية الى النفعية وتفضيل الذات ، وهي نفسها التي تعكس صداها في بيت الشاعر ويمهد السبيل للسانه كي يقول ما معناه في العربية :

كل انسان اقامه الزمان في حلبة الصدارة .

وجبت طاعته في مواعظ الحكماء .

لا أجد متسعا لاجالة النظر من زاوية الذاتية والموضوعية في مجموعات المواقف والمقولات والمواعظ والاقوال المأثورة والتراث الفولكلوري اللواتي يدفعن الفرد الى المنفعة الذاتية الضيقة الى جانب مثلها اللواتي تحفز المجموع الى حيازة المصلحة العامة ، والواقع ان جهة (منفعة الفرد) و (منفعة المجموع) تفضي الى قيم الخلق وصفات المروة وفرط الحكمة في تلك الامثال والحكم وهي على اي حال ترجمان الذات ولكن ، الذات الصالحة النيرة •

في خواتيم هذا القسم من كتابتي وجب ان اقدم توضيحا أو اثنين قصيرين فأضيفهما الى جانب من الاراء التي تتابعت متزاحمة :

التوضيح الاول هو اني مع علمي ان (السلطة) لم تقم في التأريخ على الاساس الاوحد من الاستغلال فانا افضل تفضيلا فوق المعتاد انعدام وجود السلطة غير المشروعة وأضيق بها ضيقا فوق المألوف ولهذا السبب ادين مواقف المباهاة والادلال من الثوريين : ان ثوريا يسمح لنفسه بعدم الرضا من رئيس عشيرة على ايام حمورابي عليه ان يخجل من نفسه اذ يضطهد فلاحا في زماننا يطالب بحق مشروع له في قناعته ولكنه لا يتطابق مع عقيدة الثوري •

واقول ضمن هذا التوضيح ايضا ان ما قلته حول صلاح المحاكم والقوانين القديمة لمنفعة الفقراء هو بيان حقيقة تأريخية وليس نداء للسكوت عن القانون الظالم أو المحكمة ذات السراديب فانا اذا قلت ان وجود « الحكيم ــ المقصود به العارف بالامراض » في القرون الماضية كان خيرا من عدمه لا اعني به اني افضل الحكيم المذكور على حامل شهادة يجب رد أقوالي الى عصورها •

التوضيح الثاني ، وهو الى حد ما اعادة جلب نظر سابق ، هو ان الانتقادات التي وجهتها الى المفكر المادي نبعت في الاغلب من نقد نتيجة وحصيلة وعقبى نظرياته لا نصوصها فهو اذا قال لي : « بتطور وسائل الانتاج

يتطور كل شيء ... » لا يبقى داع لالغاء ارادتي بكلامه الصريح لان محصول نظريته قد ألغى دوري بل ألغى وجودي . اقول في التوضيح انه اذا قال قائل ان السماء تدور حول الارض فيكون قد قال ايضا ان سرعة دوران بعض الاجرام السماوية تزيد على سرعة الضوء الف مليون مرة فانا نعلم ان بعض تلك الاجرام تقع على بعد مليارات السنوات الضوئية من الارض فلابد لها ان تدور بسرعة تعادل مليارات مليارات مليارات سرعة الضوء حتى تستطيع أن تكمل دائرة دورانها حول الارض في اربع وعشرين ساعة من الليل والنهار . وليس لصاحب ذلك الكلام ان ينكر هذه الخاتمة بدعوى انه لم يصرح بها . على القارىء أن يقرن القراءة بنور فكره حتى يستطيع تفحص كامل المنظر المعروض في الكتابة .

بعد هذا التوضيح اقول واكرر ان كلامي لا يضر احدا او شيئا .

ها هنا ينتهي القسم الاول من الكتابة . ولما بدأت بالكتابة هذه منذ خمس سنين فقد توالت كلها في نفس واحد ، والان اذ باشرت بتنظيمها بنية نشرهـا فقد حافظت على اتصال نفسها القديم ولكنها تمطت كثيرا واستطالت شرائطها الى حد قد يتعب نظر القارىء ودماغه فالبحث جاف فاقد للمرونة والطراوة . هذا من جهة ومن جهة اخرى فان القسم الذي جعلته جزء ثانيا هو في حقيقته كالوجه الثاني لسكة واحدة ، يكمله او يتكاملان ، وكلا الوجهين مستدبر للاخر ان لم أقل ان زاوية نظرهما متعاكسة . في القسم الاول ومن خلال الكلام في ذاتية الانسان تناولت الوجه الايجابي للعقل من حيث الاساس وهو وجه الفهم والتصور الصحيح والتحليل المنطقي (وان يكن داعـي الضرورة قد اوجب ذكر دوره السلبي ايضا) . في الجزء الثاني من هذه النظرات اتناول الدور السلبي للعقل الذي ، حسب رأيي ، لا يتصل من اي وجهة كانت بالمنفعة والمصلحة وانما هو خراب البيت وعبث التكلف والخسارة المطلقة . فحتى تقرا القسم او الاقسام الاخرى لهذه الكتابة ، فان الذي وقع عليه نظرك ها هنا يستحق منك اجالـة العينين كما تجيلهما في رقعة الشطرنج او الدامة في اقل العشم .

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق
بغـداد ٦٣٩ لسنة ٩٩١

جمهورية العراق
وزارة الثقافة والاعلام
دار الثقافة والنشر الكردية
سلسلة الكتب المترجمة (٢٦٨)

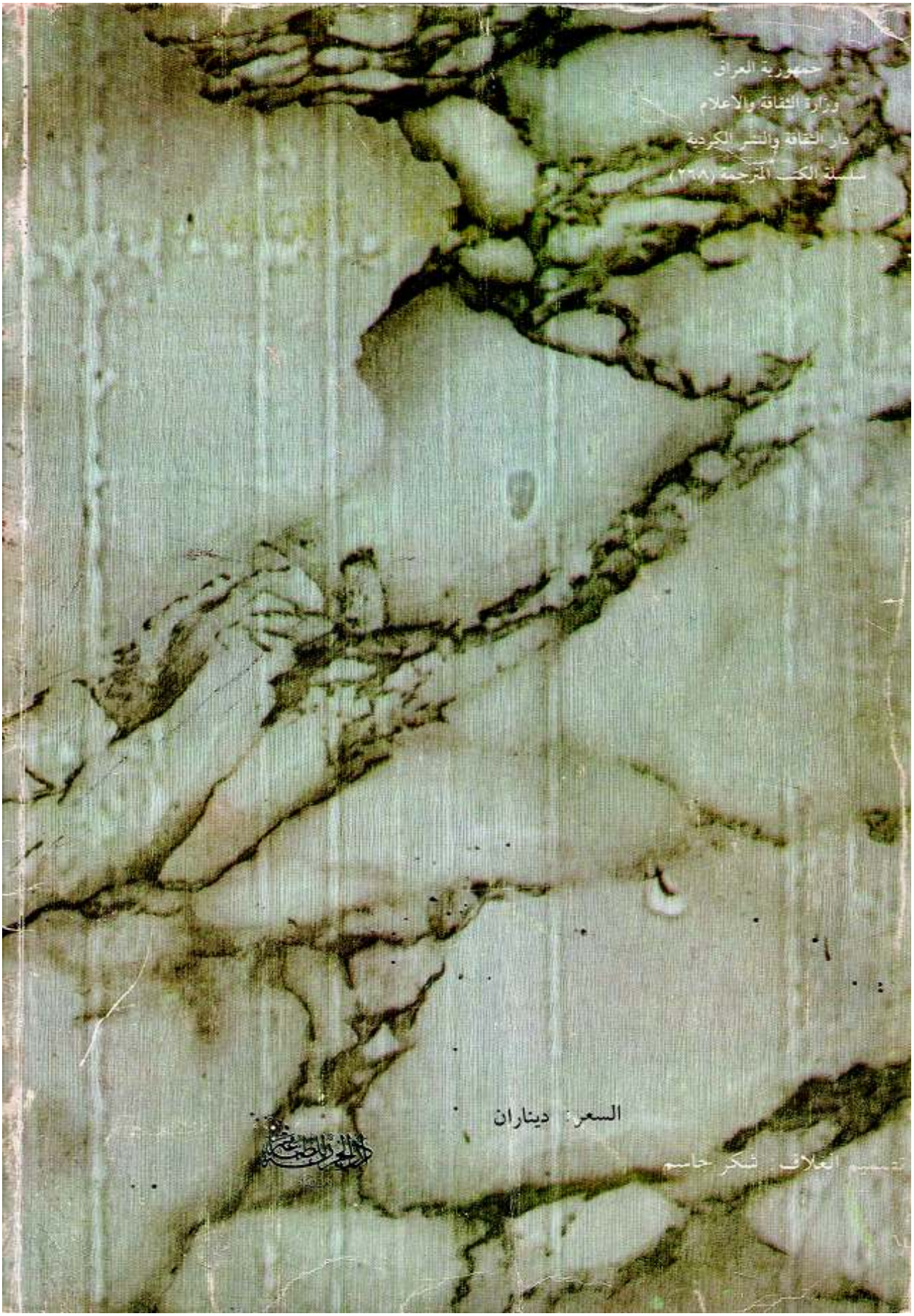

السعر: ديناران

تصميم الغلاف: شكر حاسم